محمد خيرت حماد

أحلام على الطريق

أدب الجماهير

كتاب أدبي يشرف عليه:
فؤاد حجازي

المراسلات :
المنصورة – ش المندراوي .
عمارة الفردوس .
جوار مدرسة الشيخ حسنين
الرمز البريدي ٣٥١١١
ت : ٢٢٤٧١٦٨ / ٠٥٠

محمد خيرت حماد ..شرق وغرب فى البلاد العربية بحثاً عن الرزق .. لكن داخله يمور بعذابات أصل قريته " تلبانه " يحمل اشواقهم واتراحهم معه أينما رحل .. وعندما عاد وجلس يكتب . . انبري قلمه معبراً عنهم ..

الفلاح الفقير .. الحادب علي جاموسته ..

المالك الصغير الذي يعاني من ضغط العمدة ، للإستيلاء علي زرعته..

ميراث الأسرة ، الذي يكاد يبدده طمع الأفندية الذين نالوا شيئا من التعليم ..

الفلاح الذي أراد أن يلهو ، فيحاول أبناء المدينة سرقته فى ألعاب الورق ..

مجموعة أثيره ، تحفل بها مجموعاته المختلفة .. بدءً من الضحية حتي مجموعته التى بين أيدينا ..

يسير علي نفس الدرب ، الذي خطه من قبل ابن تلبانه المرحوم محمد روميش ، مع تنوعات أخري تناسب العصر .. ويحتفظ لنفسه بتميز ، يفصله عن أبناء جيله ، الذين يلهثون وراء حداثه مزعومة .. غير نابعة من بيئة أو حياة خاصة تستدعيها ..

مدير علم الثقافة
الشاعر مصطفي السعدني

إهداء

إلي مجتمعي الصغير

أسرتي .

زوجتي

ابنتي مني

ولداي أحمد وأيمن

مع خالص الحب

محمد خيرت حماد

الدوامة

بخطوات رتيبة .. ترك قدماه تقودانه . دون هـــدف محـــدد .. تقطـــع الطريق، دون أدني إرادة منه ، تبعد به عن الضجيج . حتى وجد نفســـه علي الشاطئ . توقف برهة . نظر أمامه .. السماء تحتضن البحر عنـــد الأفق . خلفه المدينة بصراخها وعويلها .. علي بعد غير قليل . بنفـــس الخطوات تحرك فى اتجاه ربوه صغيرة .. انتقي منها مجلساً .. ومتكئـــاً ؟ ظهره للمدينة بما فيها .. بصره للماء .. الذي تنعكـــس عليـــه أشـــعة الشمس . موجه هادئ وديع .. هدوء يتمناه .. ووداعه يصبو إليـــها .. فى كل من حوله من البشر .

كعادتها دائما .. عندما تحدث أي مشكلة .. تلقي عليه بالاتهـــام بأنـــه السبب فيها .. تزعق .. تصرخ .. تبكي حتى الانهيار .

– لماذا تجلس هكذا صامتا كأبي الهول .. تكلم .. قل شيئاً .. اضـــرب ولداً .. اصرخ فى بنت .

نظر إليها فى بلاهة واستنكار .. كف عن تناول الطعام .. الذي لم يشعر له بمذاق .. دون أن يغتسل .. انسل خارج البيت .

شبك أصابع يديه خلف رأسه .. أرتكن بظهره إلي الربـــوة . أغمـــض عينية.

لا يدري علي وجه التحديد متي تقابلا .. أو كيف ؟ كل ما يدريه أنها تسللت إلي حياته . أحاطته بعنايتها .. حرصت دائما علي أن تكون بجواره . أفاق فجأة ليجدها وحدها حوله عندما آن له أن يفكر تحت إلحاح والدته فى الزواج . فلقد كانت حياتهم ميسورة .. حيث والده تاجراً كبيراً .. له ثلاثة أشقاء .. أتموا دراستهم الجامعية .. وشغل كل منهم عملاً مرموقاً تاركين لأوسطهم العمل مع والده .. وأخت واحده تكبره بعامين . كانت هي الأقرب إلي قلبه .. وعندها قابلها .. أول مرة .. لقرابتها لزوجها . حيث أبدت اهتماماً ملحوظاً به . وبتعدد اللقاءات إزداد الاهتمام . إلا أنه لا يتذكر أبداً .. أنه أبدي اهتماماً بها فى البداية.

وبطريقة .. ما حصلت علي رقم التليفون من شقيقته وأخذت تحادثه بين الحين والآخر . ترصد تحركاته .. وتسائله .. أين كنت ؟ إلي أين ذهبت؟ .. لماذا لم تحضر للقائي ؟! حتي لاحظت والدته ذلك .. وكذلك شقيقته .. ففاتحاه فى الزواج منها ولأنه يدرك مدي حب أخته له . وافقها .. خاصة عندما قالت له أن زوجها يمتدحها .. ويقول أنه لولا يتمها لكان لها شأن آخر .. حيث لم تكن قد أكملت تعليمها . وعملت بشهادتها المتوسطة .

لم يفكر فى ذلك .. كل ما كان يأمله أن يعيش حياة مستقرة .. وكفاه ما يراه منها الآن . يحلو له أن يقول بينه وبين نفسه " وكان لها ما

أرادت" . وعاشا فى إحدى الشقق بعمارة ملك لوالده . حيث كانا ينفقان مما يحصل عليه من راتب بالإضافة لما يرسله إليه الوالد أول كل شهر . هذا بخلاف ما كانت ترسله الوالدة بين الحين والآخر .. وكذا الوالد من نفحات عينية . وترك لها راتبها . عاشا أيام سعيدة ..هنية .. ميسورة .. وسيارة صغيرة تكفي لتنقلاتهم .. وجاء الولد الأول .. وزادت معه نفحات الوالدين .. ومن بعده بنت جميلة .. فزادت معها النفحات أيضا . إلي أن مرض والده مرض الموت . وطالت مدة مرضة حتي قاربت الستة أشهر .. حتي وافته المنية .. فتولي أخوه الذي كان يمارس التجارة مع أبيه .. دور الوالد للجميع . واستمرت معه المنح أول كل شهر .. بالإضافة إلي ما تجود به الأم .. إلا أنه بدأ يسمع منها نغمة جديدة ..لم تتعود عليها أذناه من قبل .. أخيك هو الذي يرسل لك مصروفك .. يتمتع فى خيركم وحده .. ويضحك عليكم بقرشين . أول مرة تحدثت معه فى ذلك نهرها بشدة .. طالباً منها عدم الحديث عن أخيه هكذا .. ثم إن ذلك ليس من شأنها .. إلا أنها كانت تتحين أوقاتاً تجده منصتاً إليها .. وتفح فحيحها بإلحاح شديد . مرة أثر أخري .. وبدأت تزيد منه بعدما رزقا بالمولود الثالث .

– العيال كبرت .. أصبحنا خمسة أفواه .. المصاريف زادت .. الحياة أصبحت صعبة .. السيارة صارت كهنة ونريد تبديلها . حدث أخيك يزيد لنا فى المصروف .

تحت إلحاحها .. ذهب إلي أخيه وكله خجل وحياء .. عيناه لم ترتفعان عن الأرض وهو يعرض عليه مطلبه . فما كان من أخيه إلا أن أعطاه مبلغاً يبدل به سيارته ووعده بالزيادة له ولأخوته أول كل شهر . وعندما عاد إليها مستبشراً سعيداً بأن إلحاحها عليه سوف يتوقف .. فوجئ بما تقول .

– يا ما جاب الغراب .. جاي فرحان علي أيه .. قرشين رماهم لك .. ده حقك ومالك .. ومال أبيك .. ذي ما هو ماله . هو عايش منعم وكل سنة يغير سيارة .. وأنت جاى فرحان بقرشين رماهم لك .

كان يجلس أمامها مشدوها .. عمن تتحدث هذه البلهاء .. أنها تتحدث عن أخي .. صرخ فيها .. صرخت فيه .. حضر الأولاد .. دخل حجرته .. أغلق عليه الباب . هجرته فى الفراش .. خاصمته أياماً ..وكلما أراد أي من الأولا د شيئا أرسلته إليه . بالرغم من أنه أعطاهـ كل ما كان معه من نقود . صرخ فيهم .. هجر البيت إلي أمه .. يومان .. أسبوع دون أن تسأل عنه أو حتي تحاول أن تعرف أين هو . وبعد أن زاد الحاح أمه فى معرفة السبب وراء إقامته لديها كل هذه المرة .. عاد إلي بيته ..لم يرحب به أحد .. حتي ابنه الصغير الذي ما كان يفارقه لحظة .. وجد كلا منهم فى حجرته يذاكر دروسه .. والصغير مع أمه يلهو .. ويشاهد التليفزيون . عاش بينهم .. غريبا .. دون أن يحادثه أحد .. أياماً عدة . لم تتوقف فيها عن الشكوي .

– المصاريف لم تعد تكفي حتي العاشر من الشهر يـــا أولاد . أريـــد أن أعلمكم كيف تقفون أمام المساجد وفى الطرقات مادين أيديكم ســـائلين المارة .. لله يا محسنين .

ثار .. ثورة عارمة .. صرخ فيها .. وفى الأولاد .. خرج مـــن البيـــت للمرة الثانية .. ذاهبا لأخته .

قص عليها كل ما يحدث بينه وبين زوجته .. طلب منـــها أن تتدخـــل بينهما .. فهي الأقرب إلي الطرفين من بقية العائلة . كما أنه لا يريـــد لأحد من أخوته أن يعرف ما يجري بينه وبين زوجته ولا حتي والدتـــه .. فكفاها ما بها من مرض .. ذهبت لها شقيقته وجلس ينتظرها فى بيتـــها ساعات مرت عليه كأنها قرون طويلة . حتي عادت ووجهها ليس بـــه نقطة دماء واحدة .. مذهولة .. غير مصدقة لما سمعته منها .

– الخلاصة .. زوجتك تريد حقك من الميراث من أخوك . ناويه علـــي الخراب . وللأسف ليس أمامك إلا خيار من اثنين .. إما اخوتك .. أمـــا أولادك وزوجتك .. وأري أنك لابد وستختار الثاني .. نحن علينـــا أن نتحمل حتي تحافظ علي بيتك وأسرتك .

أبدى شيئا من التمرد فى البداية .. بطبيعته يرفض أن ينسلخ عن أخوته . وخاصة أنه لم يري منهم إلا كل خير تجاهها . إلا أنه لم يجد بـــداً مـــن الرضوخ أمام المشاكل المستمرة والشجار الذي لا ينتـــهي .. وهجـــر الزوجة والأولاد . فذهب إلي أخته باكيا .. فحادثت أخيها .. الـــذي

أبدي ممانعة فى البداية .. مبرراً ممانعته بأنه لم يتأخر عن أخيه فى شـيء .. كما أن أخاه سيكون هو الخاسر الوحيد.. لعدم مقدرته علي اسـتثمار أمواله . إلا أنه أمام إصرار أخته وافقها راضخا . وكان .. مـا أرادت زوجته .

حمل لها المال والشيكات فى حقيبة صغيرة وألقاه أمامها .

– هاك ما أردت ..وكل ما أرجوه بعد ذلك منك .. المعاملة الحسـنة لأخوتي .. وأن تكفي عن كل ما يحدث منك معي . نريد أن نعيش أسرة صغيرة .. هادئة .. هانئة .. سعيدة ..

هدأت الزوابع المنزلية .. سكنت الرياح الزوجية .. وأخذت تتهيأ لـه وتعطيه بعض حقوقه الزوجية المسلوبة . ولم تحادثه عما فعلته بـالأموال . ولا هو طلب أن يعرف . كل ما يعرفه أن أول كل شهر ينال مصروفـه الشخصي كأصغر أولاده منها . إلي أن جاء يوم .. توفي أحد الزملاء فى العمل ..تاركاً أسرة صغيرة ..وقام زميل يجمع بعض الأمـوال منـهم ليعطوها لزوجة المتوفي .. مد يده فى جيبه .. لم يجد إلا مبلغاً زهيداً متبقيا من مصروفه .. إرتبك .. إحمرت وجنتاه . أعطاه ما معه واعـداً إيـاه بالزيادة غداً . فكيف يعطيه هذا المبلغ الزهيد وهو من عرف عنه أنه ابن الثراء والغني . وعندما عاد إلي البيت قص علي زوجته مـا حـدث .. ثارت فيه .

– * أنا أجيب منين .. هو إحنا قاعدين علي بنك * .

– أين الأموال التى أحضرتها لك من أخي .

– لقد أودعتها البنك حتي لا تمتد يدك .. فتوزعها علي النـــاس كمـــا تريد.

ثار .. جن .. لدرجة لم تعد لديه المقدرة علي التحمل . شل فكـــره .. تجمدت مشاعره .. تبلدت أحاسيسه . وبعد أن هدأت ثورته .. وجـــد نفسه ساكنة . مستسلمة استسلاماً قدريا .. لا مهرب منه ولا مفر .

من لحظتها .. وجد بداخله أشياء غريبة لم يكن يعرفها من قبل .

يجلس فى العمل .. فلا يحادث أحداً من الزملاء إلا فيما ندر .. إذا عـــاد للبيت .. أغلق عليه حجرته . عزف عن الطعام .. إلا أقل القليـــل .. لم يعد يهتم بما يرتدي من ثياب . ولا حتي بحلاقة ذقنه .. أو قص شعره .. لم يعد يرغب فى رؤية أحد . أو زيارة أحد . أحس بكفيــــه وذراعيـــه يؤلمانه. إعتدل فى جلسته .. نظر حواليه .. طائر صغير .. ركز عليــــه ناظريه .. ينقض بين الحين والآخر علي سطح الماء يلتقط شيئا ويعود إلي أعلي .

عنّ له أن يفعل شيئا .. أمسك .. بحصوة من جانبه بأقصي ما يســـتطيع من قوة .. رماها .. سقطت فى الماء محدثة دوامات تكاثرت فى البداية .. سريعة .. ثم تلاشت بعدها . نهض من جلسته .. صلب عوده .. قـــدر الاستطاعة . أخذت أقدامه تقودانه .. علي الطريق .. والشمس أخذت تسحب عن الكون أشعتها المضيئة .

أحلام علي الطريق

الليل باسط جناحية .. محتويا الكون . السماء ..تتناثر نجومها .. يخفف من سناها غلالات من السحب .. تتحرك بتأثير رياح غير مستمرة . متوسطة القوة . فى ليلة غاب عنها القمر .

بدأ الطريق أمامه طويلا . لا نهاية له . يدرك بدايته . تغم عليه النهاية تماماً . السكون مطبق . خطي أولي خطواته فى تصميم واضح علي السير . فليس أمامه إلا أن يسير . أحكم اغلاق " الجاكت " رفع ياقته .. لتدفئ عنقه .. الذي يعلو قامته المديده .. وكاهليه العريضين .

بخطواته العسكرية الواسعة .. وفتوته البينه . أخذ يغد المسير . عندما استلم تصريح آخر أجازة له فى الخدمة العسكرية كجاويش مؤهلات عصر اليوم . أصر ألا ينتظر قطار منتصف الليل . أخذ يتنقل بين وسائل المواصلات المختلفة حتي وصل بداية الطريق الترابي المؤدي إلي قريته . فتلك الإجازة تختلف عن سابقاتها . فليس بعدها أجازات . بتلهف وإصرار علي الاستفادة بها من بدايتها . فى البحث عن عمل .. يتناسب ومؤهله الجامعي . يعينه دخله منه علي بداية طيبة تمكنه من تحقيق حلمه فى الارتباط بحبيبته وبناء عش الزوجية وما يترتب علي ذلك .

فليس له مورد آخر يعتمد عليه .. يكفي ما أنفقه عليه أهله حتي أكمل تعليمه وخاصة أن كل ما يملكونه هو فدان أرض و " فحله " صغيرة بالكاد تؤدي الغرض منها .

طوال فترة تجنيده إعتمد فيها علي مرتبة الصغير في تسيير شئونه الخاصة وتلبية حاجاته الضرورية حتي يكفيهم مؤونته .

كل ما كان يقلقه ويلح عليه هو البحث عن شخص مهم يكون واسطته للحصول علي العمل المناسب . حتي لا ينضم إلي طابور العاطلين من سنين طويله . وهو لا يحتمل ذلك . وعلي حسب قوة الواسطة .. يكون العمل الممكن الحصول عليه . طرق باب عضو مجلس الشعب بدائرتهم .. لكنه يخشي أن تكون وعوده سياسية . لهذا سيتفرغ له يوماً من الصباح الباكر ينتظر أمام منزله ليصحبه علي يده حتي ينهي له مهمته . حتي لو اقتضي الأمر التضحية " بالفحلة " حسب ما وعده به أبيه . علي أمل أن يعوضه عنها من راتبه فيما بعد .

لست أدري كيف سيكفي راتبي .. لتعويض ثمن " الفحلة " أم متطلبات الحياة اليومية . أم إيجار السكني فى المدينة .والادخار منه لحياتي القادمة من شقة ومهر وشبكة .

بدأت استكثر الالتزامات كمحاولة للتنصل من وعدي لأبي .. هل حصلت علي العمل ..وقبضت راتبي حتي أفعل ذلك . لماذا أسبق الأحداث ؟! ولماذا لا أسبقها بالنوايا الطيبة ؟! نوايا طيبة أو غير

طيبة.من أين ستأتي النوايا الطيبة ؟ والأمور واضحة .و البداية ستكون من الصفر .. بالإضافة إلي أنني مهما حلمت فلن أصل إلي الراتب الذي يفي بالتزاماتي الشخصية . ابن من أنا حتي تكون البداية مناسبة .. حبات من العرق نض بها جبينه .. رغم برودة الجو . مسحها بظهر كفه. متي سأتقدم لطلب يد ليلي ؟ لا أدري ! وليس معي ما يكفي ثمن دبلتين . أدرك تماماً مدي لهفتها علي تقدمي لأهلها وخاصة أن مدة انتظارها طالت .. بعد حصولها علي دبلوم التجارة المتوسطة من خمس سنوات مضت .. وانتظارها بدون عمل في بيت أهلها . كما أن الخطاب بدأوا يطرقون بابها . مما جعلها تخبر أهلها بأنها في انتظار انتهاء تجنيدي لأتقدم إليها .. كل ما أخشاه أن يرفض والدي الذهاب معي بحجة أنه ما زال أمامي الكثير قبل الإقدام علي هذه الخطوة . وان فعلها لا أقدر علي لومه . فالأمر المؤكد أن الحق سيكون بجانبه . أفضل شئ أن أصل معها إلي تفاهم يرضي كل الأطراف كأن نقرأ الفاتحة مثلاً وبعد الحصول علي عمل بكام شهر نقدم لها الشبكة . لكن كيف سيمكنني ان ادخر ثمن الشبكة في كام شهر . وهل سيكون الهدف الأول شراء الشبكة أم تعويض أبي عن " الفحلة " .

كم أتمني أن يسترها ربنا وأحصل علي العمل بدون تضحية " بالفحلة " ولو ربنا كملها معي بالستر وحصلت علي عمل في مدينة قريبة يمكنني السفر إليها يوميا . تكون أمي مستجابة الدعاء .. لا نحتاج لثمن الشقة

كما أن الحياة بالريف ستكون أرخص . أقل شئ سأكون وسط أهلـــي اللقمة لنا كلنا . ولو تمكنت بعد ذلك من تشغيل زوجتي وتسافر معـي كل يوم سوف تخفف العبء عني وتسير المركب . " ونخلـــف البنـــين والبنات ونعيش في تبات ونبات " .

تعثر فى مشيته .. حتي كاد أن يقع . تماسك . أحس بـآلام خفيفـــه فى قدمه اليسري .. ضربها فى الأرض .. أخذ يتحرك من جديد بخطـــوات تسرب إليها الوهن . التفت خلفه .. لا يري شيئا . نظر أمامه . لا يكاد يبصر شيئا .. من معالم الطريق . لا يدرك أين هو منه .

استمر فى المسير . استجابة قدريه لما هو فيه .. طاوعته أقدامه .. عـادت إليها تلقائية الحركة .

انبعث داخله شبح اخويه سالم واحمد .. واخته هناء التي صارت عروسه . فى انتظار من يتقدم طالبا يدها . لم أفكر فيهم من قبل أين حظهم مـني وأنا الأكبر .

لم أفكر إلا فى نفسي ومشاكلي .. حاضري ومستقبلي !!

ماذا فى ذلك ؟! هل يشغل المرء إلا همومه الشخصية ؟! كما أن ســـالم اختار لنفسه طريقة .. بهروبه من المدرسة .. استمرأ العمل فى الحقل تارة بأجر .. وتارة مجاملة لمن يجاملنا . أما أحمد فما زال فى المرحلة الابتدائيـة .. الطريق أمامه طويل . وكلما تقدم في مراحل التعليم نكون نحن تقدمنا فى درجاتنا الوظيفية ونكون قادرين علي تحمل عبئه . أما هناء . فأمرهـا

ليس بالهين . فأكيد المهر لن يكفي لأي شئ كالعادة .. وعلـــي أهــل العروسه المساعدة فى إعداد عش الزوجية .. أيه .. ربنا يســترها هــل يقف العريس علي الباب ؟ وإن كان واقفاً فلينتظر حتي يسترها الكريم ، أو نبيع ربع الفدان أو نصفه . لكن هل سيوافق والدي ؟ أكيـــد لا .. وسيتهمني بالجنون عند طرح الفكرة عليه .. لماذا أحمل نفســي همــوم الدنيا ؟! ألأني الأكبر ؟ لكن أبي موجود .. ربنا يعطيه الصحة .. عليــه أن يتحمل عني . ألها مسئوليته هو . ثم أن عليه أن يضحي مــن أجــل أبنائه . هل أطلب المستحيل .

هونا عليك .. ما يقدر علي القدرة إلا القادر .

أما يكفي ما فعله من أجلي .. كل علي قدر حاله . هذا قدري وعلي أن أتقبله .

لكن من يرضي بنصيبه فى هذا الزمن .

إستمرت خطواته التلقائية علي طريق .. لا يدري أين هو منــه .. دون أن يري بصيصاً من ضوء .

من القاتل ؟!

نسمات لطيفة .. تخفف من حرارة جو يوم صيفي .. زاد من رقتها مـا قام به الخفراء من رش الماء .. أمام " الدوار " . من الترعة الـتى تمـر أمامه.

جلس تحت ظل شجرة الكافور الوارفة .. المعمرة . التى شهدت عصور أجداده .

علي كرسيه المأثور .. مستنداً بكفيه علي عصاه " العوجه " بين ساقيه . رافعاً رأسه فى شموخ . تعلوه طاقية بيضاء ناصعة بلون ثوبه .

يقف خلفه .. غير بعيد عنه .. خفيره الأثير لديه ..مكمـن سـره .. ومصدر متعته .

فى جلسته هذه .. يمكنه أن يري كل عابر .. داخلاً القرية . أو خارجـاً منها .. فالدوار فى أول القرية .. والطريق هو الرئيسي فيها . وكلمـا اقترب أحد من مجلسه .. إن كان ممتطيا مطية ..يهرول نازلاً عن ظهرها ..مبديا التبجيل والاحترام لأعلي رأس فى القرية وأكبر سلطة فيـها .. وإن كان مترجلاً .. لابد من أن يستدير إليه بوجهه ويحيه بانحنـاء .. ثم ينصرف إلي شأنه دون أن ينتظر رداً علي تحيته .

غير بعيد عن مجلسه .. وبحذاء جدار " الدوار " .. وضعت أريكه خشبيه .. يصطف عليها عادة فى مثل هذا المجلس .. شيوخ القرية .. وشيخ الخفراء . ويتناثر بالقرب منهم بعض الخفراء .

وفي حجرة التليفون التى تطل نافذتها علي الشارع .. يجلس عامل التليفون .. رهن الإشارة .

أسند العمدة ظهره إلي ظهر المقعد .. فى استرخاء .. وترك عصاه بين ساقيه .

هرش رأسه بأصابع يده اليسري .. وعدل وضع طاقيته بعدها . رأسه تكاد تنفجر .. آثار الخدر .. تبددت .. ولم يبق منها إلا .. حمار فى العيون .. ونظرات شاردة . ورغبة ملحة فى المزيد منه .. يصبر عليها كالعادة حتي يهل الليل ويرخي ستائره السوداء .

مما عجل بتبديد ..مابقي فيها من خدر .. إن باله مشغول. فالأمر .. جد خطير .. همام ابن الليل .. وذراعه الباطشة .. غاضب منه .. متمرد عليه . بعدما منع عنه العون الشهري . فما الداعي لأن يدفع له وقد استتب له الأمر بالكامل .

اشتري الأرض التى كان يطمع فى ضمها لأرضه وبالسعر الذي فرضة .. بعدما قام همام ورجاله بحرق محصولها أكثر من مرة وهو علي شجره .. وكل معارضيه من رؤوس القرية .. وكبار عائلاتها .. استكانوا ..بعدما ذاقوا بطشه .. من حرق للديار وتسميم للمواشي .

ما الداعي إذن لأن يستمر فى الدفع لهمام ؟! ثم أنه يمكــــن أن يفســـر استمرار الدفع علي أنه علامة ضعف منه .

بل ما الداعي لأن تكون له علاقة به من أصله . انهي العمل المطلوب .. وقبض أجره عليه . وكل واحد يروح لحالــه . وخاصـــة أن خفـــراءه يقومون بالباقي . وهي فى العادة مهام صغيرة لا تستدعي أن يكتري لهـا أمثال همام . فلا تعدو أن تكون إشباع رغبة من امرأة . ويتولي ذلـــك خفيره الخصوصي .. حيث يظل يتلصص عليها حتي إذا علم أن زوجـها يبيت ليلته فى الحقل عند الساقيه .. يروي الأرض . يحضر .. ويزف إليه البشري همساً فى أذنه .. وبعد أن يتمكن الظلام .. يتقدمه إليها ويتـولي الأمر حتي يفتح له الباب .. ويلج منه . فينتظره أمامه حتي يقضي مآربه ..ويخرج إليه .. حيث يعودان من حيث أتيا . لم يعكر صفــوه إلا مــا حدث من امرأة عثمان أبو خيشه .. حيث أبدت مقاومـــة عنيفــه .. وصرخت لولا أن لحقها الخفير وانهال عليها بالعصا التى لا تفارق يده .. وهددها بإطلاق النار عليها .. فهل يصح أن تتسبب فى فضح عمـــدة البلد وكبيرها .وخاصة أنه أتي إليها ليمنحها الشرف الســـامي .. وفي دارها . إلا أن الخبر تسرب إلي زوجها .. لايدري كيـــف ؟ ولا مـــن أخبره؟ .. وقابل خفيره بعدها .. وهمس له بعبارة لم يفهمها الخفـــير .. ولكنه فهمها.

– الكلب المسعور .. لابد من سمه .. يا .. ولم يكمل عبارتـــه .واتتـــه

الجرأة لأن يقول ذلك لخفيره ؟! .
نهره الخفير .. وهدده .وتوعده إن فتح فمه مرة ثانية . والذي يخشاه أن عثمان أبو خيشه له أقارب في بلاد أخري . بعضهم أولاد ليل .. ولهم سطوتهم .
أفاق العمدة .. علي الشيخ عامر .. إمام المسجد الكبير .. وهو يلقي عليه السلام في انحناءه .. مذكراً إياه بوعده له بوضع .. بعض الفوانيس حول المسجد وداخله .. لإنارة الطريق إليه .. وخاصة أن حواري القرية ضيقة ولا يري الناس بعضهم .
– إن شاء الله .
تلك العبارة المأثورة عندما يريد تمييع الأمور .. فلماذا يشتريها هو ؟! .. لماذا لا يقوم الشيخ عامر بجمع ثمنها من المصلين بالمسجد . تنحنح ..اعتدل في مجلسه .. عدل من وضع " الطاقيه " علي رأسه بعد أن هرشها بيده اليسري .. بحركة تلقائية .
حقا .. لقد اتخذ كل احتياطاته .. لم يعد يسهر بعيداً عن الدوار فالدوار واسع وبه بدلا من الحجرة عشرة . كما أن من يرغبها يمكن إحضارها لأي سبب .. واكتفي بالمعارف القديمة من النساء . ولا داعي للجديد من الغزوات إلي أن تهدأ الأمور .
كما أنه زاد من عدد الخفراء المكلفين بحراسته .. وحراسة الدوار . وكلما دعاه أحد من شيوخ القرية أو سامريه إلي سهرة في منزله . طلب

منه اعدادها فى الدوار .. متعللا .. بأنه يعاني من آلام فى ظهره . وعندما يشفي منها سيقوم بتلبية الدعوة .

كل ما كان يخشاه .. هو أن ينال أحد أعدائه . ابنه سـليمان . فـهو وحيده.. وبعد صلاة العشاء .. تجده فى البيت بين زوجته وأولاده كما أن علاقاته طيبه مع الجميع .

عند ذلك .. تنحنح .. وعدل من جلسته .. خرج من بين شـفتيه .. دون أدني اهتمام .

– طظ .. اللي يقدر علي حاجة يعملها .

هرول إليه خفيره الخصوصي .. ظناً منه أنه يطلب شيئا .. فصرفـه :

أخذت السماء .. تصطبغ بحمرة الغروب .. تدارت الشمس فى حيـاء خلف الأشجار وهياكل البيوت . لا يبين منها إلا الشفق الأحمر .

فجأة .. دوي طلق ناري .

انتفض له الجميع .. وقف الجالس .. أفاق التائه ..

الكل يستطلع من أين أتىّ الصوت .. وما مصدره .

سقطت عينا الخفير الخصوصي علي العمدة . وجده مترنحا فى جلسته .. وقد سالت دماء حمراء .. علي ثوبه الأبيض .

صرخ .. هرول ناحيته .

– يا نهار أسود . . العمدة إنطخ يا ناس . هرول علي صراخـه كـل الموجودين .. تعالي الصياح ..

– اطلب الأسعاف يا خفير .
– اطلب المركز يا جدع .
تحوط حوله كل أركان نظامه .. حملوه بمقعده .. إلي الداخل . ســرعان ما سري الخبر فى القرية . كما تسري النار فى الهشيم .
– من الذي فعلها .
– همام لا غيره .
– همام .. أو غيره .. المهم أنها اتعملت ولأول مرة فى البلد .
– يا خراب ابيض يا ناس .. العمدة .. يتقتل عيني عينك .
مع ظلام الليل .. عاد كل إلي منزله .. وأغلق عليه بابه . ملتمســا .. الأمان . خرق الصمت .. سرينة .. سيارة اسعاف .. وسيارات النجدة والبوليس .. الذي جاس أفراده الشوارع والحواري .
تمكن الظلام .. سكنت القرية .. لا يدري أحد من أفرادها متي يــأتي النهار .. وهل بعد هذا الليل .. من نهار ؟

أحلام الصغار

شمس الظهيرة .. تلفح الكون بلهيبها .. الهواء ساكن .. وان عن لـه أن يتحرك .. فهو ساخن .. لا يرجى منه خير .

الشارع الرئيسي بالقرية .. يكاد يكون خالياً من المارة .. أبواب البيوت المصنوعة من الطوب اللبن .. مفتوحة علي مصراعيـــها . وأهلـــها .. راقدون بمداخلها يلتمسون الراحة بعد أن انتهوا من عملهم . فتاتـــان تسيران حافيتان .. ثيابهما البالية .. مبتلة من أثر العمل .. إحداهما تضع علي رأسها " سلطانية " وفى فمها قطعة نقود صغـــيرة . تتهامســـان .. تتضاحكان .. غير مباليتان بحرارة الشمس .

بمجرد دخولهم الدار .. ولجت إلي حجرة المعيشة .. أحضرت إحـــدى الصحاف . خرجت لأمها التي ما أن انسلت إلي صحن الـــدار حـــتى تربعت علي الأرض وسطها .. تلتمس رطوبتها . فتحت كيس نقودهـــا الذي أوثقته بعروة جلبابها البالي . أخرجت منه قطعة نقود معدنية صغيرة .. ناولتها إياها وهي توصيها .

– خلية يزود حبتين .. ويكثر من الزيت والشطة .

استمعت لوصية أمها دون أن تنبس .. خرجت وصياح أبيها مناشـــداً

إياها إلا تتأخر .. يلاحقها حتى الشارع .

نادت علي صاحبتها التى تقطن بالدار المجاورة لهم . فهي بالإضافة لكونها من عمرها .. فإن أخيها المجند بالقوات المسلحة .. يبادلها الحب .. كما أن الأهل شبه متفقين علي الزواج بعد جني محصول القطن .

أرادت أن تتباهي أمامها بأنها تشتري " الفول المدمس " كما أن حلم الغذاء الشهي يراودها .. كما كانوا يتمنون وهم عائدون من الحقل .. فقد خرجوا جميعاً من أول ضوء . لشتل الأرز فى أرضهم مع من يزاملهم من الأهل والجيران . ظلوا جميعا علي لحم بطونهم حتي انتهوا من الشتل " توزيع شجيرات الأرز علي الأرض المغمورة بالماء فى مجموعات صغيرة " .

علا صوت ضحكهن .. ازداد احمرار خدودهن .. لمعت أسنانهن البيضاء.

فجأة .. مدت يدها لتمسك بيد صاحبتها .. تسمرت مكانها . شرقت .. ابتلعت شيئا .. ابتسمت لحظة . وعندما أدركت أنها إنما ابتلعت قطعة النقود ... صرخت .. بكت .. صاحت فيها صاحبتها وهي تربت علي كتفها مذهولة .

– جرالك أيه يا بت .

– بلعت الفلوس .

ضربت بيدها عي صدرها .. احتضنتها .. أخذتها إلي جانب الطريق ..

أرتكنتا عي جدار أحد البيوت .. وصراخـــهن يتصـــاعد .. ممتزجـــا بيكائهن.
التف حولهن نفر قليل من المارة . وبعض من خرج من بيوتهن متســائلين عما حدث . وعندما علموا السبب .. أخذ بعضهم يضرب كفا بكف .
- ازاي ده حصل ؟ تبلع الفلوس ؟!!
- هي لسه صغيره ؟!
- لا تخافي سوف تنزل منك .
- ربما جري لها حاجه .
- لا .. لا هايجري ايه يعني .
- اطلبوا لها الإسعاف أحسن .
صاح آخر الواصلين ..
- لا اسعاف ولا حاجة .. السنة اللي فاتت حصل لابن أخـــتي نفـــس الشيء .. وبعد يومين نزلت منه من غير ما يصيبه أي حاجه .
- يا راجل ؟!
- والله ده اللي حصل .
اقتنع البعض .. ابدي البعض الآخر تفهما لعدم خطورة ما حـــدث .. مصمص البعض الشفاه .. وأخذ في الانصراف . خفت حدة البكـاء .. كفتا عن الصراخ .
انفرط الجمع من حولهن .. حتي وجدنا نفسيهما وحيدتـــان مســحتا

دموعهن بكفيهما .

ربتت صديقتها على صدرها .. أخذت بيدها .. وبـــدون أدني ارادة .. تطلعتا سويا ناحية محل الفول .. الذي كان علي بعد خطـــوات قليلـــة منهن .

أخذتا عائدتين بخطوات مترنحة .

الراحل

نشيج مكتوم كأنه صوت أعماق تتمزق .

بين الحين والآخر .. تتصاعد مصمصات حزينة .. كأنها أنات جريح . حجرة واسعة يغمرها ضوء النهار .. لفحات ساخنة اختلطت بنسمات لطيفة معتدلة .. تداعب الجالسين .. بشيء من الجفاء . بعد أن تجتاح الحجرة من خلال الأبواب الثلاثة .. بابان جانبيان وآخر مطل علي الشارع . أصوات عويل نساء تنفذ إلي الآذان في وهن .

– بلاش كده يا إمام .

– معلهش يا شملول حقك علي .

– الصبر .. الصبر نصف الإيمان يا أخي .

الصبر .. أما من كلمة أخري غير هذه الكلمة .. الناس لا تأكل الصبر .. كما أنه لن يعيد لي أحمد .. ابني الوحيد .

– انت والله ما انت عارف أنا بيه إيه .. أنا بتحرق من جوه يا جدع .

– يا راجل اصبر ربنا كبير .

– أنا عايز أعرف أنا عملت ايه فيه علشان يعمل كده .. ابني وخايف عليه وعلي تعبه .. كل يوم والتاني ألاقيه شغال مع واحد بالمزاملة ..

وساعة ما يكون عندنا ما بنلاقيش حد يزاملنا .. حلفت عليـــه إن راح يزامل حد تاني لأضربه بالبلغة .. زعل مني .. ساب البيـــت .. وخـــد نفسه وراح علي المصرف .. خلع هدومه ووقف علي الكوبـــري ودور ظهره للمية وسقف بإيديه ورمي نفسه .. طب ليه يا أحمد يا ابني عملت كده .. وأنت يا واد كنت عارف ربنا كويس ..

– أي والله .. كنت دائما أشوفه يصلي معانا فى الجامع .

– يا شيخ قناوي .. والله كان بيصوم الثلاث شهور .. رجب و شـعبان ورمضان .. والست أيام البيض .. ومن غير سحور .

– يا شعبان علي الطلاق كان دايما يقول يا ابا .. أوعي تتخانق مع حـد .. خلي الناس تحبك حب الناس نعمة .

– يا عيني يا ناس الموت كده .. ما يخطفش إلا الناس الكويسه .

قالها كهل يقارب السبعين من عمره ..لاذ بالركن البعيد من الحجرة وقد ربع ساقيه أسفله .

– يا واد يا أحمد يا واد .. دي عملة تعملها فى أبوك .

أنحني علي طرف جلبابه .. يكفكف به دمعه . ران الصمت لحظـــات . تمزقها مصمصات شفاه .. بسملة وحوقله .. أناس تنتابهم الرهبة .

– يا حاج حجازي .. الدكتور طلع تصريح الدفن ولا لسه .

– آه طلع التصريح وعسكري خده وراح البندر يمضيه مـــن وكيـــل النيابة. والدكتور خد منير وكامل علشان يروحوا علي جـــوار الحـــاج

متولي ذي ما جابوه .

– ما حدش راح مع العسكري ليه .

– مش ضروري .. هو يعني اللي جيروح معاه ها يعمل أيه .

– يعمل أيه ؟! اصل العساكر دول أنا عارفهم كويس .. يروح يقعد علي قهوه .. يفطر ويشرب الشاي ويقول أنا مالي .. وبعدين يروح يمضي التصريح ويمكن ما يلاقيش وكيل النيابة .

– لا .. بإذن الله يمضيه ويرجع بسرعة .

– يا جماعة إكرام الميت دفنه .

– يا سيدي ما تقلقش .. ها يندفن علي العصر .. إن شاء الله .

قطرات من الدمع .. تغمر عينيه الحمراوين .. وأخري تشق لها مجري علي خده . سحب الصمت خيمت لحظات .

– والله طلع دكتور .. أبن حلال .. ما طلبش فلوس .

– اسكت يا راجل .. هو يعني موت وخراب ديار . والا يعني ها ندفع رشوه علشان ندفن الميت كمان .

– عجيبه يا ناس ..علي دكتور السنة اللي فاتت ..كان عايز يأخذ رشوه علشان يصرح بدفن واحد ميت عنده فى المستشفي بيتعالج من الحريق.

– آه .. ابن الصاوي .. ده لولا البلد كانت رجاله يومها واتلمت عليه وكانت هاتكسر له العربية بتاعته ما كنش طلع التصريح ..

– والأكاده .. راح عمل محضر في البندر ان البلد اعتدت عليه .
أصوات نشيج مكتوم .. كأنه صدي أعماق تتمزق .
انحني علي طرف جلبابه يكفكف به دمعه .
– والله يا ناس ما حد بيمسح دموع التاني .. كل واحد بيدور علـــي نفسه وبس .. كده يا واد يا أحمد .. تعمل فيه كده .. دانا يا وحـــش أبوك .. أنا مش مصدق يا ناس أنه مات .. أنا متأكد كويـــس أنـــه .. تعبان ونايم شويه . قوم شوف يا حاج حجازي ان كان عيان قولي اروح ابيع الجاموسة اللي حيلتي وادوايه بيها عند الحكمه .. والله يا ناس ما أنا متأخر .
– السلام عليكم .
ينهض الحاج حجازي .. والشيخ قناوي وبعض الرجال .. يســـتقبلون القادم أمام ما زال جالسا .. يحملق في القادم في حزن أليم ..
– البقية في حياتك يا أمام .
– البقية في حياتي أيه .. أنا قلت أنه عايش .. بس هو عيان .
مصمصه .. وهمسات .
– الراجل مسكين .. عقله خف .
– عنده حق يا ناس .. الواد كان الحيلة علي ست بنات .
– لكن لازم الواحد يكون عنده شويه إيمان برضه .
– ربنا يصبرنا علي بلاوينا .

اهتزت رؤوس فى تأس .. انحنت أخري فى خشوع ورهبـــة ، وظلـــت البقية مرفوعة فى لامبالاة .

استوي أمام فى جلسته .. ربع ساقيه أسفله .. أخذ يضرب بكفيه علـــي فخذيه .

الحاج حجازي الجالس بجواره .. يربت علي ظهره .

– يا أمام اعقل بقي .. ده كان وديعه عندك .. واستردها اللي خالقها .

– آه .. صحيح .. رايح لربنا . بس ليه يا رب اخذته وسبتني لوحدي طب كنت خدني أنا .. وسيبه . ده لسه شباب .

– لا حول ولا قوة إلا بالله .. هاتكفر يا راجل .

علت الكآبة وجوه بعض الجالسين .. وغمرت الرهبة الفـــدة البعـــض الآخر .. بسملة .. وتوحيد .. بالله .. تخرج متلاحقة من الشفاه .

– والله أنت .. ابنك كان أعقل منك ألف مرة .

– أيوه .. والله أنت كلامك صح . ده أنا فى يوم كنت زعلان مع الامام وقلت له يا أحمد تعالي خذ شوالين أرز وبيضهم فى مكنة الطحين علـــي حماركم .. راح من وري أبوه جاب الحمار .. وخد الرز بيضه وجابه .

– أيوه .. يا حاج حجازي .. جه بعدها وقال الكلام ده لأمه .. وأنـــا فرحت لما لقيته عمل كده .. ده في يوم العيد أنت اعطيته العيديه وشوية بلح .. فكها وجه فرقها علي اخواته البنات وهو ما نابوش حاجه .. يـــا دوب بلحتين . قلت له وأنت بقالك ايه .. قال أنا مش عايز حاجة يابا.

المهم أخواتي يكونوا مبسوطين .
– كان الله في عونك يا شيخ .. كان الله في العون .
– ايوه .. أدعو لي .
– كلنا بندعي لك وله .
– السلام عليكم . هكذا قطع الداخل مجري الحديث .
– التصريح جه .. والدفنه طالعه .
نهض الرجال .. التف الحاج حجازي والشيخ قناوي بالامام وعاونوه علي النهوض .
رفع رأسه التي تبلل عيناها الدموع . سار بينهم مسلوب الإرادة . بأقدام ثقيله .. إلي أعماق الأرض تشده .. يودع الراحل .

كلب العمده

اعتلت الشمس كبد السماء .. أخذت ترسل أشعتها الحارقة ..تلفح وجه الكون فى ذلك اليوم من شهر يوليو .

الحقول مترامية الأطراف . تكسوها أعواد القطن الخضراء الصغيرة . بكل حقل مجموعة من الصبية .. ينحنون علي الأشجار الصغيرة البضه .. وقد غطي رأس كل منهم ما يقيه وهج الشمس . وربط وسطه .. ليجعل من نطاقه مستودعا لما يجمعه من أوراق الشجر . وبعد أن يمتلئ يذهب به إلي رأس الحقل حيث يشعلون فيه النار .

خلف كل مجموعة يقف رجل " خولي " يغطي رأسه بطاقية من الدبلان فى مقدمتها حاجز لحجب الشمس عن عينيه ومن الخلف مدلاه علي كتفيه . يمسك بيده عصاه طويلة يلهب بها ظهور الصبية .. ان راودهم الحنين إلي صلب أعوادها .

يقوم الصبية بانتقاء الأوراق المصابة " باللطع " (بيض فراشات دودة القطن) التى تضعها علي أوراق الشجر .. وبعد فقسها تتحول الي يرقات تتشوتق داخل اللوزة فتمنع تفتحها .

القيظ شديد .. الجو خانق .. دون نسمات تلطف من وهج الشمس .

الصبية يعملون فى صمت أحياناً ..وأحياناً أخري يتصـــايحون ببعـض المواويل والأغاني . والرجل خلفهم لا يكف .. تارة عن مناداقم باســم كل منهم بالجد . وتارة أخري بعصاه الطويلة التى ينهال بها علي أعقابهم الصغيرة . وقف سطوحي " خولي العمدة " الذي لا يكف عن التبـاهي بقربه منه .. وثقة جناب العمدة الكبيرة فى شخصه الضعيف . متوسـطا الصف .. وفى أعقابه مباشرة . حتي يكون الكل فى متناول عصاه .

مد قامته .. بكم جلبابه الطويلة .. مسح حبات العرق عن جبينه . نظر حواليه .. علي امتداد بصره لم يتراءى له قادم ولا ذاهب .

" ولا حتي صريخ ابن يومين .. مجنون من ذلك الذي يخرج مــن دارة الآن ويأتي للمرور علي حقله . ولا حتى المشرف الزراعي . فرصة طيبة أمدد جسمي شويه . " .

– واد يا مرزوق . رفع قامته من بين الصف المرصوص أمامه .

– نعم يا عم سطوحي .

– خذ هذه العصا .. وقف خلف الصف . " ها أوصــل راس الأرض شويه وجاي تاني " .

دون أن ينتظر منه إجابة .. ألقي له بالعصا .. وشق طريقة بحرص بـين الشجيرات . حتي إذا وصل الي مجموعتين متباعدتين من عيدان التيـل العالية .. خلع جلبابه .. فرده علي طرفي المجموعتين يظلل به الفجـوة بينهم .. إنحني وساوي الأرض .. وأبعد الحصي الكبير .. ومدد جسـده

ناشداً الراحة .. وعينه علي الصبية .. وبين الحين والآخـر .. يصـرخ عليهم .

لاحظ شخص يخرج من بين الصف وقد جمع ممن حوله ما جمعوه . واتجـه نحو رأس الأرض .. حيث يرقد .. ليلقي بما جمعوه إلي النيران .. اقترب القادم .. فبانت ملامحه .. فتاه تقترب من سن النضج ..مرفوع نطاقـها ..عن سروال .. ممزق .. يحمي ساقيها من وهج الشمس .

أفرغت ما في حجرها .. انحنت تفرغ ما في نطاقها .. فتكـور ردفاهـا الصغيران .. حتي إذا انتهت . نادي عليها .

ذهبت إليه بسرعة .. وقفت عند قدميه .

وجهها مستدير كالقمر .. تكسوه حمرة خفيفة . بدت طويلة أمام عينيه.

– تعالي هنا . أشار إليها عند منتصف جسمه الممدد.

– اجلسي . عندما تم لها ذلك .. جلس أمامها .

بتأن .. مد يده وخلع عن رأسها ما يغطيه .. فك ضفيرتيها الصغيرتين .. بدا وجهها الأبيض المشوب بالحمرة .. وشعرها الأسود المتدلي حولـه.. كالقمر وسط الليل الحالك . تأججت الرغبة بداخله . مسح عن جبينها العرق .. في مودة ..غير مألوفة لها . اندهشت الصبية .. اسـتكانت في وجل .. تحسس شعرها .. نزل بيده إلي جيدها ..ثم صدرها الـذي لا يبين منه شئ . وإن كان ثمرتان صغيرتان .. أخذتا في النمو .

وضع يده الأخرى علي إحدى ساقيها .. وأخذ يتحسـسها . رنـا إلي

عينيها المندهشتين فى استكانة عزبة . شدها ناحيته برفق . اقــتربت إلي حد الالتصاق به . اقترب بفمه من وجهها طبع قبلة علي خدها الأحمــر الصغير . والصبية مستسلمة فى ذهول .

وفي اللحظة التى كاد يقتحم فيها . فوجي بصراخ من فوق رأسه .

– يا نمار أبوك أسود يا سطوحي . فى أرضي .. ومع أنفاري .

نظر مشدوها .. ليجد العمدة . مصلوبا فوق رأسه وقد أمسك بيسراه " الشمسيه " وبيمناه عصا خيرزان .. أخذ ينهال بها عليه .

لم يدر بنفسه إلي وقد قفز من فوق الصبية وأخذ يجري نصف عار بــين الحقول ولعنات العمدة وسبابه يلاحقانه .

ليلة - ساد فيها الظلام

الصمت تمكن من أن يغلف الأشياء بغلاف سميك .
إرتكن بمرفقه علي الجدار التي أضاعت بقع دماء داكنة معالم لونــــه .. يتأمل سحابات الدخان التى يذرفها وهي تغالب طبقات الهواء الرطب .. نزل ببصره إلي رجل يقارب الخمسين من عمره .. بزيه الريفي .. افترش الأرض وهو يحتضن منديلا .. صرت فيه بعض زجاجات دواء.
بقدماه اللتان تشققتا .. يداه الخشنتان .. وجهه الشـــاحب .. قوامــه الهزيل . طفل يجاوره .. قارب الأثني عشر عاما . تكور .. أخفي وجهـه بين ذراعيه . شاب رث الثياب .. يرتدي حذاء الجنود .. يرتكن بظهره إلي الحائط .. ومد ساقيه . يبحث ببصره عن شئ لا وجود له . وربمــا من كثرة البحث تبلبلت نظراته . فبدت وكأنه لا وجود للشئ الـــذي يبحث عنه .
مل وقفته .. تحرك فى الحجرة .. ذهاباً وإياباً . وقد حشر يديه فى جيوب سرواله .
دار المفتاح .. انفرج الباب الضخم عن شرطي .. يدخل شاب .. يحمل فوق كتفه غطاء وفراش باليان . دفعه للداخل وأغلق الباب الذي بـــث

حشرجته المحتضره . إنتبه علي الشباب يركل بقدمه الرجل الممـــدد .. طالباً منه إفساح المكان له .. ليعد لنفسه الفراش .. ثم بصوت مرتفع .. صرخ علي الطفل أن يغير موضعه . هتف به ذو النظـــرات الضائعـة مستنكراً .

– ايه .. هو أنت حالف ما تنام إلا هنا .

– اذيك يا بيظو .. قوم فرش معايا .

اشترك الاثنان في إعداد الفراش . الذي ظهرت به تمزقات وبقع متفرقـة وجلسا معاً .. فوقه .

بعد أن كان قد كف عن الحركة .. بدأ يعاود المسير .. ذهاباً وإيابـــاً . القادم الجديد يتأمله بعيون متسائلة .. وجهها إلي بيظو .. الذي قابلـــها أيضا بنفس النظرة .

من الحجرة المجاورة .. ارتفع صراخ امرأة .

– والنبي يا شاويش خرجني .. أنا عايزه أروح لعيالي ..

– الله .. هو فيه ضيوف الليله يا بيظو .

– الليله الماضية كانت امرأة من اياهم .. الليله .. حكايتها ايه .

– معرفش .

– الله .. أمال أنت هنا بتعمل إيه مش عارف ازاي .

– أنا مالي .. قالها بعد أن هز كتفيه بلا مبالاة .

اعتدل الرجل جالساً .. بعد أن كان قد هجع .. في ركن الحجرة البعيد

عنهم . والطفل بجواره . رفع رأسه . من أحضان ذراعيه .
عاد ثانية للوقوف .. مستنداً بكوعه علي الحائط . والسيجارة الأجنبية بين شفتيه .. تسيل لعاب القادم الجديد .
ضوء اللمبة الكهربائية .. النافذة الصغيرة التى اغلقتها القضبان الحديدية المتعامدة .. وطبقتان من الأسلاك .. يثيران فى نفسه شعوراً جديداً لم يعرف كنهه .
بعد أن تحسس بيده مكانا أو سعه .
– اتفضل يا فندي .. ما تيجي تقعد .. الليل طويل .
أحس برغبة حقيقية فى الجلوس .. وهو يجلس خرجت منه تنهيدة حارة لفحت وجه القادم الجديد .
الرجل .. بعينيه الواهنتان .. يرقب هذا التحالف الجديد .
– أنا شلضم .. اسم حضرتك ايه .. عملت ايه .. أنا باشتغل مع شلة صفوت .. تعرفها .. نقف دائما .. أمام محطة القطار فى الميدان .. بعربة يد .. نضحك علي المسافرين وخاصة الفلاحين . لغاية ما نخليهم يلعبوا الثلاث ورقات .. وناخذ فلوسهم ونزقهم ..واللي يتكلم .. يأخذ علي قفاه.
استمر فى حديثه دون أن ينتظر رداً .
– " كان نفسي اشتغل شغلانه كويسه " .. آكل من عرق جبيني .. لكن اعمل ايه .. قعدت كام سنة من غير شغل .. امي تصرف عليّ .

صعبت علي نفسي .. ما لقيتش قدامي إلا المعلم صفوت شغلني معاه .. اعمل أبي بلاعبه .. وهو يزعق .. تكسب جنيه تكسب خمسه .. لغاية ما تمشي العملية علي الزبون ويقع ويلعب وفي النهاية أساهم مع البـلقين ف ضربه وتنظيفه ونجري بالعربية .

– تعرف بيظو يا بيه .. أبوه صاحب فرن بلدي .. وكسيب .. واتجـوز علي أمه .. صعبت عليها نفسها شالته ف أيام فقره واتجوز عليها لما بقي معاه القرش .. طردته من البيت .

حلف ما يعطيها ولا قرش . لاهي ولا أولادها .. بيظو وأخ أكبر منه .. اشتغل كمساري ف السكة الحديد . ولما جالها المرض بـاعت ذهبـها علشان تتعالج وتعيش هي والأولاد .. لغاية ما بقت علي الحديـدة .. راح الولاد لأبوهم يطلبوا منه فلوس لعلاج أمهم وعلشان أكلـهم .. مرات أبوهم قالت لهم بالفم المليان وأبوهم قاعد . مافيش فلوس أصرف عليها انت وأخوك .. ما انتم رجاله اهه وبتشتغلوا . يا ست هانم اخويا ما بيشتغلش وأنا مهيتي يا دوب تأكلنا عيش – قالت له – إبعث أخـوك يجيب لي حاجة السوق كل يوم .. وأنا أعطيه اللي فيه النصيب .. تصور يا بيه المرأة عايزاه يشتغل عندها . الواد غلي الدم ف عروقه وشـتمها . وهو ماشي .. جرت وراه وخلعت الشبشب من رجلها ونزلت ضـرب فوق دماغه .. قام بضربها .. راح أبوه بسلامته طالب البوليس وجـابوه هنا بقاله ثلاث ليالي .. انت شفت أخوه . لازم تكون شفته .. هو اللي

جاب له الأكل اليوم .
صدق بيظو علي كلامه .. بإيمائه من رأسه .
عاد بذاكرته محاولا .. إستعادة ملامح ذلك الأخ .. نحيف الجسم .
عيناه تنظقان بالطيبه والانكسار .
إنهمك الرجل الريفي فى متابعة الحديث .. وكذا الطفل . إرتفع صواخ المرأة من جديد ..
– يا شاويش .. هو انت ما فيش فى قلبك رحمة .. سيبني أروح لعيالي .. مالهمش إلا أنا .. زمانهم ماتوا من الجوع .. ثم تنخرط فى بكاء مرير .
وجدها شلضم فرصة .. ليظهر سطوته علي الحجز كله .
– فيه إيه يا وليه انت .. ايه حكايتك . من بين دموعها اتى صوتها .
– بابيع شويه برتقال فى غلقه .. ارزق من وراهم بلقمة عيش .. جه الشاويش ياخد مني اثنين كيلوا .. انتصيت فى لساني وقلت له هات تمنهم .. كان انقطع لساني يا خويا وما كنتش قلت له حاجه .. قال لي ما فيش فلوس .. قلت له طاب هات نص تمنهم .. ما تخسرنيش .. أنا باجري علي يتامى .. راح ضارب الغلقة برجله .. ومشي ومعاه الكيس . وشوية لقيت عسكري جاي يأخذني ورماني هنا .
– بس .. هو الشاويش خلف .
– ما يعملهاش الا هو .. يا بيظو .
مصمصات عميقة .. تتصاعد من القروي .. اعقبتها .. تنهيده حيارة .

نظرات حزينة .. مندهشة كست وجهه جعلته يسحب نفسا عميقا من سيجارته الأجنبية .. ثم يزفره في الهواء دفعة واحدة .

رق لها قلب شلضم .. وتاهت لها نظرات بيظو .

– وانت يا غبي ما لقتيش إلا العساكر تبيعي لهم .

– ما كنتش أعرف .. هو أنا يعني بياعه .

– الضابط قالك ايه .

– هو أنا شفت ضابط .

– لازم يعرضوك علي الضابط النوبتجي .. زمانه جاي قولي له علي الحقيقة .. ما تخافيش من حد .. وربنا يسترها .

عند هذا الحد .. فوجي من بالحجرة .. بالصديق الجديد .. يلقي بالسيجارة من فمه ينهض . يضرب علي الباب بعنف . مناديا الجلويش ليفتح له الباب .

تعالي سباب الجاويش من الخارج . وهو يأتي ناحية الباب ثم يدير المفتاح بعصبية في الباب . ليجده أمامه .

– الله .. هو أنت .. عايز ايه ؟.. عامل دوشه ليه ؟.. أنا افتكرتك .. واحد من ولاد الكلب .. دول .

– احنا مش ولاد كلب يا شاويش .. قالها بيظو .

ركله الجاويش صارخا .

– يا أخي بطل لماضه .. أمال ايه اللي جابك هنا .

– ما يهمش .. لكن إحنا مش ولاد كلب .

– يا شيخ .. قالها الجاويش بعد أن أشاح بيده .

– عايز أروح دورة المياه .

– عامل الدوشه دي كلها علشان تروح دورة المياه .. تعالي يا خويلد.. روح الدورة .. وخرجا . وبعدها اغلق الباب . ساد الصمت لحظات .. قطعها شلضم سائلا بيظو .

– مين الأفندي ده يا ولا .. شكله مش شكل واحد عامل عامله .. ولا هو وش بهدله .. ولا دي حركات واحد عايز يروح دورة الميه .

عاد لصمته من جديد .. وهو يهرش في رأسه حيرانا .

ذاب كل من بالحجرة في الصمت . توحدوا جميعا فيه .

نادي شلضم .. علي الرجل والطفل .

– تعالوا هنا .. معانا .. ندفي بعض .

بعد لحظات .. مرت كأنها دهرا .. فلا فرق كبير بين اللحظات والساعات والأيام . فتح الباب .. وعاد الأفندي إلي الحجرة . ليجد الجميع كيانا واحدا . دون تفكير .. جلس علي طرف الفرش .. لحظات قضاها معهم متوحدا في الصمت ..أخرج علبة سجائره .. وأعطي شلضم إحداها .. وأشعلاها معا .. وأخذ يتسابقان في زفر دخانهما في الهواء . صامتين . أدرك بعد برهة أنه لم يعط الفلاح احدي سجائره .

– خذ يا عم ولع .. " واحكي لنا " إيه الحكاية .

أخذ الرجل يتلذذ بتدخين السيجارة .. علي مهل .

– بقالي خمستاشر يوم فى القصر... امبارح بس طلعوني ما معيش فلوس أسافر بها . وقفت أمام محطة القطر أطلب الأجره من واحد افنـــدي .. مساعدة يعني . لقيت شاويش جاي ماسكني .. ونزل فيا ضرب . أنـت ما بتبطلش شحاته .. وجابني هنا .. وقال للأفندي الضابط .. أنه معتاد التسول .. قال له أرميه جوه .. معتاد التسول ازاي وأنا أول مرة أجـي هنا يوم ما دخلت القصر وأنا ما كنتش عارف سكه المحطة لـــولا ولاد الحلال دلوني . نظر إلي الطفل بإشفاق .. فهم الفلاح مقصده .

– ده يا بيه .. أمه منها لله .. جاياه بأيديها هنا . علشان جوزهـــا مـــا يزعلش . أصل أبوه مات .. دار عليها واحد تاني بيشتغل جزار ..كـــل همه فى مزاجه ووجود الواد فى البيت مش مخليه علي راحته .. يقوم كل شويه ضارب الولد . شاتم أمه .. يعني شغل تلاكيك .. المـــره عـــايزه تعيش تعمل ايه .. هداها تفكيرها تجيبه هنا .. يودوه ملجأ .

الطفل ألقي رأسه علي صدر الرجل .. وراح فى ســـبات عميـــق .. لم يستطع معه أن يعدل من تكوره .. فأراحه الرجل .. وتمـــدد بجـــواره محتضنا صرة الدواء .

عاد الصمت .. يغلف جو الحجرة .

بيظو تمدد مسندا رأسه علي ذراعه المثنية .. يغالب النوم .

شلضم اسند رأسه إلي الحائط .. ومدد جسمه .

خيم الصمت .. وأخذت الحشرات ترعي فى الأجساد لا يطاردها أحـد بالهرش .

إنطوي كل علي ما بداخله .. وأسلم وجوده وكيانه كلـه للسكون والنوم .

وسط الزحام

اليوم ثاني أيام المعرض الدولي . الناس يتدفقون في جماعات .. كل جماعة معها أطفالها .. وبين الأطفال من يحمل مزمارا .. ومن يهلو ببالونـــة . وصوت مكبر الصوت التابع للإذاعة المحلية للمعرض يصدح بالأغــاني والأناشيد الوطنية ... وكل عارض يتفنن في عرض ما عنده .. ولفـــت انتباه الزوار بإذاعة داخلية تصدح بما يراه كل صاحب معرض ملفتـــا وموافقا لرغبة وذوق المشاهدين .

الجو حار في ذلك اليوم من أيام الأسبوع الأول من مايو .. وذلك علـي غير العادة في مثل هذا الوقت من العام . بعض السحب الرقيقـــة تمـــر ..تارة تحجب الشمس علي استحياء فتنشر ظلالا رقيقة .. وتارة تمـــر بعيدا عنها فلا تحجبها . وكان في ذلك فرصة طيبـــة لانتشـــار باعـــة المثلجات .. اللذين يعلنون عن أنفسهم تارة بزمارة كبيرة مزعجـــة .. وجاذبة للأطفال وتارة أخري بالنداء بالصوت العالي أو بمكبرات صوت صغيرة من تلك التي تحمل باليد .

الأصوات العالية اختلطت .. تاهت معالمها .. لا تشعر إلا بـــالضجيج يسد أذنيك .. والصداع بدأ يتسلل إلي رأسك .

كنت أتنقل أنا وزوجتي وابنتي الصغيرة بين المعروضات وقد أمسك كل

منا بيد من يديها وهي سائرة بيننا .
وقد أنهكنا المسير .. وحرارة الطقس .. شعرت بالعرق غزيـــرا علـــي جبهتي .. مددت يدي وأخرجت منديلا من جيبي لأجفف به عرقي .
وفجأة .. أدركت أنْ يدي الأخري حرة .. ليس بها أحد .. أين هبـــه ؟ .. تلفت حولي فلم أجدها .. سألت أمها .. أين ذهبت البنت ؟ .. كأنما أفاقت فجأة هي الأخري .. ضربت صدرها بيدها .. وصرخت .
– البنت راحت فين ؟!! .
يا إلهي .. هكذا دون أن ندرك ؟ ..تسربت من بين يدينـــا .. دون أدني إحساس أو إدراك من أي منا ؟
– لقد اشتريت لها بالونة بزمارة .. فسحبت يدها مني حتي تتمكن مـــن الإمساك بالبالونة وهي تنفخها .
بنفوس ذاهلة .. ودون أدني إدراك أو وعي .. أخذنا نتلفت حولنـــا .. وننادي كالمجانين .. فتختلط نداءاتنا بنداءات الباعة . عدت إلي المحـــل الذي اشترينا منه البالونة ..ولا أثر لها .. في الطريق .. أو أمام المحل .
كيف نغفل عنها بهذا الشكل ؟ وقد كانت بين أيدينا . شعرت بأن قلـبي قد سلب مني .. توقف الدم في عروقي .. شل عقلي تماما .
هبة .. أين ذهبت .. من بين أيدينا ؟ كيف تسربت ؟؟ لست قادرا علي إدراك ذلك تماما .. أو تصور حدوثه . ثم هل سيمكنني العودة بدونهـا ؟ .. عدت إلي حيث تقف أمها .. تلاقت نظراتنا الذاهلة .. إصفر وجهها

تماما .. الدموع تنساب من عينيها الذاهلتين .. تسمرت فى مكانها .. لا كلام .. لاحركة .. تحركت في اتجاه مغاير .. أنظر لكل طفل وطفلة .. كل هؤلاء الأطفال .. وبنتي أنا التى ليس لي سواها ..
هي التى تضيع مني .. ومن بين يدي أنا وأمها ؟!! .
أين أنت يا ابنتي ؟.. بالله عليك .. رحمة بي وبأمك عودي إلينا . أخذت أنادي عليها كالمجنون .
– ماذا حدث .
– ابنته تاهت .
– إذهب إلي الشرطة .. أو الإذاعة المحلية واعلن عنها .. وان شـاء الله ستجدها . حقا .. لماذا لم أفعل ذلك من البداية بالرغم من أن ذلك كان بديهيا . تحركت نحو عربة الإذاعة .. وجدت رجلا وفتاة .
– لو سمحتم أنا تاهت مني ابنتي .. اسمها هبه كامل السيد .
– كم عمرها ؟ سأل الرجل بهدوء .
– خمس سنوات .
– شكلها ..ماذا كانت ترتدي ؟ قلت نافذ الصبر .
– بيضاء .. صفراء الشعر .. ترتدي بنطلونا أصفر وبلوزه بنية اللون .
أمسكت .. الفتاة أخيرا .. ميكروفون الإذاعة وأعلنت عـن التائهة وأوصافها .
قال الرجل .

– أصبر .. إن شاء الله سوف تجدها ..

كم هي سخيفة هذه الكلمة .اصبر . كيف أصبر ؟؟ ومن أين يـــأتي ؟؟

ثمان سنوات صبرناها أنا وأمها حتي رزقنا الله بها ولذلك أسميناها هبـه .. تعرضت فيها حياتنا الزوجية لكل أنواع الشد والجذب .. وكم مـــرة كانت علي وشك الانهيار لولا أننا كنامتزوجين عن حب .. فقد كنـــا زملاء فى العمل .. وحاربنا العالم حتي تزوجنا . كم ليلة بتناهـــا نحلـــم ببكاء طفل .. يقلق مضجعنا .. ونسخط عليه .

– من يجد طفلة صغيرة ترتدي بنطلونا أصفر وبلوزة بني ويحضرها عنـــد الإذاعة واصرخ مكملا .

– واسمها هبة كامل السيد .

أخيرا .. وجدت زوجتي القدرة علي الحركة .. فتحركت من مكانهـــا ووقفت بجانبي بجوار سيارة الإذاعة ودموعها لم تتوقف .

أشعر بكفيها الصغيرتين تحتضنان وجهي .

– بابا .. شعرك كبير .. احلقه .. حتي لا يشوكني عندما أقبلك .

أقوم من مجلسي فى الحال .. واحلق ذقني .. وعندما أعود وآخذها بـــين أحضاني .

– إيه رأيك .. الشوك ضاع .

تتحسس صدغي بكفيها .. ونتبادل القبلات ..ثم فجأة تتوقف لتقول .

– إيه ياسي بابا .. هو احنا فتحناها مبوسة .

– نعم يا مجرمه .. فتحناها .

أري من موضعي طفلة قادمة وحدها ترتدي بنطلونا أصفر .. أجـــري نحوها وقد تولد داخلي الأمل فى العثور عليها .. وعندما أصلها .. يتبدد الأمل .. فأعود خائبا .

– يا رب ..عفوك.. ورضاك . ليس لنا سواها .. أنها كل حياتنا .. ذات مرة سافرت أمها تزور أهلها وأخذتها معها .. وعندما صرت وحـــدي بالبيت .. كان يتردد صوتها فى أذاني .. وعندما أتى الليل ..كنت أهـب من نومي علي بكائها .. ولم استطع النوم ليلتها . ومبكرا سافرت لهمـا .. وكانت تلك هي الليلة الوحيدة منذ أن رزقنا الله بها التى مرت وهـي بعيدة عني .

كيف سنمضي أيامنا بدونك يا هبة ؟!! .

فقدت الإحساس تماما بنفسي . بالزمن . بالجوع .. بالعطش ..لا أشعر بشئ .. لا أدرك أي شئ .. الا شيئا واحدا فقط .. وهـــو أن ابنـتي ضاعت من بين أيدينا أنا وأمها .

أهل هذا حلم مزعج ؟! . كابوس . سوف نستيقظ منه علي صوتهـا . لقد كانت فى منتهي السعادة وهي ترتدي ملابسها فى الصباح عندمـا. أخبرناها أننا ذاهبان إلي المعرض .. وسنشتري لها لعبا وملابس جديدة . وهي التى اختارت ما لبسته .. أحضرته من دولاب ملابسها وأخـذت ترتديه معتمدة علي نفسها . ثم استسلمت لامها فى حبور وهي تضع لها

ذيل حصان وتضع وردة علي شعرها . ثم وهي تسير بجوارنا في الشارع تثب . إنها لم تكن تسير . كانت تطير ..هل كانت تطير لتصل إلي هـذا المصير المجهول ؟! .

– أين ذهبت ؟؟ ..هل خطفها أحد وخرج بها ؟؟

ذهبت إلي الباب القريب .. وسألت الواقفين عنده . ولكنهم اكـدوا علي عدم خروج أي أطفال .. بهذا الوصف .

داعبني الأمل .. إذا ما زالت بالداخل . أو لعلها خرجت من باب آخـر .. فكم باب للمعرض .. إزداد جنوني ..إذن لقد خطفت .

– يا هبه .. أين أنت ؟؟ ..تعالي لبابا يا هبه .

تركت أمها بجوار سيارة الإذاعة .. وأخذت أبحث في كـل مكـان .. وأدخل كل محل .. ودورة مياه .. انظر لكل طفل وطفلة ..تارة أنـادي .. وتارة أخري أتأمل الوجوه .

بدأ يكبر داخلي الإحساس بأنني لن أجدها .. أخذت أطارده بكل قـوة .. كيف لن أجدها ؟؟ .. وهل يمكنني الحياة بدونها ؟

كلما مر الوقت ..يخرج هذا الإحساس لدائرة الوعي مرة ثانية .. ويثقل علي .. لن تجدها وكلما حدث ذلك اشعر بأن روحي تنسـحب مـن جسمي رويدا رويدا .

لم أعد أشعر بنبض قلبي .. تبلدت أحاسيسي .. لم أعد أعـرف كيـف أحزن أكثر من ذلك ؟ أو أقل ؟ أخذت أصرخ .

– هبة .. أين أنت . لقيني رجل .
– ألك بنت ضائعة . قلت بلهفة .
– نعم يا عمي .
لقد شاهدت طفلة تبكي وأخذها للاستعلامات فاذهب واسأل هنـــاك لعلها تكون ابنتك . أمسكت به دون أن أشعر . تشبثت بذراعيه .
– بيضاء وشعرها أصفر وبه ورده حمراء .
– نعم . – ترتدي بنطلونا أصفر وبلوزة بني .
– نعم . قالها وهو شبه مذهول .
– اسمها هبه .
– كيف أعرف .. لم أسألها .. إذهب إليها وستعرف إن كانت هـــي أم لا.
– أين هي غرفة الاستعلامات هذه .
– أتعرف أين سيارة الإذاعة ؟
–.نعم .
– أنها قبالتها مباشرة .
جريت .. بل طرت .. لم أشعر بنفسي .. ولا بالمسافات .. والأمكنـــة وصلت إلي سيارة الإذاعة .. حتى إذا وصلت الحجرة . اقتحمت الباب .. حتى إذا لمحتها جالسة بجانب فتاة الإستعلامات ..تسمرت .. صرخت .. ضحكت .. فتحت ذراعي .

المرأة الثانية

لست أدري .. كيف حدث ذلك ؟؟!! ..علي وجه الدقة . كيف بدأ .. نما داخلي .. وصل إلي هذا الحد .. الذي أصبح متمكنا من كل ذرة فى كياني .. كل ما أدريه واتذكره .. أنه فى يوم مالا أتذكره تحديدا .. بينما أجلس فى المكتب وحدي .. حضرت برفقة زميل .. قدمني لها بـشـاسمي الأول .. مؤكدا لها أنني الشخص المناسب لحل مشكلتها وانصـــرف . استمعت إليها دون أن يلفت انتباهي فيها شئ محدد . بل لعلي لا أتذكر أني نظرت إليها أكثر من مرة أو اثنتين أثناء الحديث . وبعد أن تفـهمت المشكلة .. أخبرتها أنني شخصيا سوف أتولي مسئولية حلها .. وطلبــت منها ألا تقلق .. وإذا حدث ولم يكن الحل سريعا .. مـــا عليـــها إلا أن تتصل بي تليفونيا بالمكتب .. أعطيتها رقم التليفون وإسمـــي فى ورقـــة صغيرة . عندما قرأت إسمي وعرفت لقب العائلة .. سألتني عن صديقـة لها تبين أنها ابنة خالي . لحظتها سألتها عن علاقتها بالزميل الذي أحضرها .. أخبرتني أنها لا تعرفه .. إنما وهي بالمصعد سألت عمن يكون بيده حل مشكلتها .. فتولي هي إحضارها إلي .. عند ذلك دخل علينا بـــالمكتب ثلاثة أفراد .. أصحاب مشاكل مختلفة .. فطلبت منها الاطمئنان وأنه لا

وفى نفس اليوم .. عندما انتهيت من المقابلات .. سألت من بيده موضوعها .. عن موقفها وعرفت منه أنها صاحبة حق .. فطلبت منه مساعدتها وإنهاء المشكلة على وجه السرعة .. واتصلت بها فى نفس اليوم فلم أجدها . عاودت الاتصال بها ثاني يوم وأخبرتها بالموقف وأن المشكلة فى حكم المنتهية . فأخبرتني أنها اتصلت بابنة خالي وحدثتها عن حضورها إلي .. ومدحتني لها .. وتحدثنا عني قليلا . ثم فى معرض الحديث .. حكت عن ظروفها وأنها مطلقة .. لديها ثلاثة أولاد .. وتعيش مشاكل متعددة مع مطلقها ومحاكم .. وقضايا . وأنها عاشت معه اتعس أيام حياتها واستطردت إلي مشاكلها معه .. لست ادري كيف حدث أن طلبت رؤياها مرة ثانية .. بعيدا عن مكان العمل . تواعدنا على اللقاء ثاني يوم ..

تعمدت الجلوس قبالتها .. حتى أراها جيدا .. أتأمل ملامحها .. نظرات عينيها .. ماذا تقول ؟ . لم أكن أدرك أن هناك شيئا ما .. بذرة ألقيت فى أرض خصبة . بسرعة غريبة نبتت .. أخذت تنمو . حدثتني عن حياتها مع زوجها السابق .. كيف تعيش الآن .. بأولادها دون أن يعطيها مليما واحدا . كانت يداها أمامها على المنضدة الفاصلة بيننا .. تعبثان بمنديل ورقي .. مددت يدي اليمنى بتلقائية شديدة .. أمسكت يدها اليسرى .. رنوت لعينيها الخضراوتين .. ابتسمت فى دعه .

– أمن الممكن أن تقبليني مسئولا عنك وأولادك من الآن ؟!

– ولماذا تظلم نفسك معي ؟ وأنت لك بيتك وأولادك .

– سأكون سعيدا لو منحتني هذه الفرصة .

نظرت لعينيها متمنيا قبولها مطلبي .. رنـــت إلي .. ســبلت عينيـــها . استكانت يدها . فى يدي رفعت يدها إلي شفتى وقبلتها . جذبت يـــدي إليها فى رفق وقبلتها هي الأخري .

– أشكر الصدفة التى جمعتنا .. وأرجو أن نكون حريصـــين علـــي ألا نفترق .

– أهكذا .

– أقدارنا هي التى جمعتنا . فلندعها تحدد خطواتنا معا . والحق أقول لك .. أن ذلك تم فى الوقت المناسب لي تماما .

- ألست سعيدا فى بيتك ؟

– حاليا .. لا..

صمتت لحظات .. ثم قالت :

– أنا جربت خراب البيوت . ولا أريد أن أكون سببا فى حدوث ذلـك لغيري .

هذا شئ سابق لأوانه .. الآن كل ما أطلبه منك أن نتح لبعضنا الفرصة. للتعرف أكثر .. وبعدها يكون لنا معا كلام آخر.

تعددت بعد ذلك اللقاءات .. نمت فى داخلي النبتة أكـــثر وأكـــثر .. تشعبت فروعها ..توزعت فى شرايينى .. امتدت جذورها .. وتغلغلـــت

فى قلبي وكياني كله .
جافاني الفراش .. نهضت .. استيقظت زوجتي . سألت :
– ما بك .. تتقلب كثيرا .
– جافاني النوم .
أغلقت باب الحجرة خلفي .. حتي لا يزعجها ويقض مضجعها .. صوت تحركاتي فى الشقة . خرجت للشرفة .. جلست وحيدا .
السكون .. يشمل الكن .. ضباب كثيف ينذر بحرارة الجو باكرا .
منذ بدأت علاقتي بها .. وأنا حريص غاية الحرص فى بيتي .. مع زوجتي .. أولادي .. حقا لاحظت علي كثرة استعمالي للتليفون .. الحديث الهامس فيه .. سألتني يوما فأخبرتها أن إحدي أخواتي عندها مشكلة .. نتناقش معا فى حلها .. أبدت عدم اقتناع بحجتي .
اشد ما كان يحز فى نفسي .. أنني وجدت بداخلي رغبة غريبة فى الابتعاد عنها .. عدم التحدث معها .. ألا أجيب علي سؤال لها . كأنما كنت أخشي أن أناديها باسم الأخري .. أو لأنني لا أرغب أصلا فى الحديث معها .. بعدما شبعت من الحديث مع الثانية .
ذات ليلة .. حكمت الظروف .. وتطلب الأمر .. أداء الواجب الزوجي . لأول مرة منذ زواجنا .. أجدني بهذا البرود والهدوء .. بل وعدم الرغبة. لم أنبس بكلمة علي غير العادة تماما . وكم كانت أمنيتي أن لو كانت هي التى بين أحضاني .. بشفتيها الممتلئتين .. ونهديها

الصارخين المتمردين . أهمس إليها . أذوب معها .. انتـهيت مـن أداء الواجب .. استلقيت بجانبها استكمل أحلامي . كيف مضت تلك الليلة .. لست أدري ؟! .

وكبرت المسافة جدا بين ما أعايشه يوميا .. وامارسه .. وبين ما يعتمـر بداخلي . يسري فى دمي .. فى أنفاسي التى تتردد فى صدري .. مـاذا دهاني ؟! .

أحسست بجفاف شديد فى حلقي .. افرغت فى جوفي نصف زجاجة مياه مثلجة .. نجوم السماء فى ليلة غاب فيها القمر .. تبدو باهتة .. من أثـر الستر الضبابية .

– أريد أن أخبرك .. بشئ ..لا أجد الشجاعة ..منذ ما يقرب من ثلاثـة أيام .. لأخبرك به .

– خير .. ماهو هذا الشئ ؟! ثم منذ متي تعودت أن تخفي عني شـيئا .. أو تحرجين فى الحديث معي عن أي شئ .

– لقد تقدم لي شخص .. طالبا أياي للزواج .. قبله أهلي .

– وأنت .

– قبلت .

– نعم ؟! ؟! .. لن تكوني لغيري مهما حدث .

– كيف أكون لك .. وأنت لست ملك نفسـك ؟

– آه .. لقد رتبت أمورك .. لديك المنطق والحجة .

– لا أريد أن أدمر حياتك .. أريد رجلا غير متزوج .. أو علي الأقل ليس له أولاد .. يقبل بي وبأولادي .

نهضت .. جلست .. علا صوتي محتجا .. شوحت بيدي معاركا الهواء . نبهتني أكثر من مرة بأن الناس حولنا .. أخذت تتلفت إلينا . لم أعبأ بشئ . اجتاحتني موجة غضب عارمة ..افقدتني صوابي بالكامل .. لم أر شيئا حولي ..لم أسمع كلمة .

انتبهت وهي تنهض حاملة حقيبتها من علي الطاولة .. وتهم بمغادرة المكان .

حملقت فيها غير مصدق .. وقد تسمرت فى مكاني مبهوتا .

– تعقل .. عد لرشدك .. وفكر بروية ..عندها سوف تقدر ظروفي .

وغادرت المكان .. وكأنما تذكرت شيئا .. عادت لتقول لي .

– أرجو ألا تحاول الإتصال بي ثانية .

أسقط فى يدي .. بهت .. كأن جبلا من الجليد إنهار فوقي .. ابتل جسدي بعرق بارد . تنضد به مسامي . ظللت جالسا لحظات . شارد الذهن مشلول الإرادة .

نهضت من جلستي .. أكياس من الرمل تثقل كاهلي .. تشل قدرتي علي الحركة . دمي كالمسحوب من عروقي .. أو لعله تجمد فيها .. قواي خائرة .. أخذت اضرب الأرض بقدمي .. لا ثبت لنفسي أنني مازالت حيا . سرت بخطوات مترهلة .. حتي وجدت نفسي أمام تاكسي متوقفا

لانزال راكب .

قمت من جلستي .. أغلقت باب الشرفة .. دخلت غرفة المعيشة .. أدرت التليفزيون .. علي كل القنوات .. لم أتوقف عند قناة محددة . أغلقته .. جلست .. أسندت رأسي علي كفي .. رأسي تفور .. تغلي .. شعرت بسخونتها .. دخلت الحمام .. تخلصت من ثيابي .. فتحت الدش .. لينساب الماء ..غامرا كياني المتبلد . مكثت طويلا .. تحت الماء .. حتى شعرت بالدم يجري في عروقي من جديد . إرتديت ثيابي .. دخلت علي زوجتي .. سكنت بجوارها علي الفراش .

حادثة سرقة

مضي المسحراتي .. وما زال صوت طبلته يـــدوي فى الآذان .. تربــع الحاج إبراهيم علي الأريكة التى تتوسط بهو الدار . بعدما أيقظ كل مـن فيها . صغيرا وكبيرا .. فالصغار يحرصون علي تناول السحور .. بالرغم من أن معظمهم لا يكمل نهاره صائما .

قامت النسوة بإعداد الطعام .. علي " الطبلية " التى تتوسط حصـــيرة كبيرة بالبهو . جلس الحاج والتف حوله أبناؤه .. يتناولون سحورهم فى صمت . فالنوم ما زال يثقل الجفون .. وبرودة الجو .. فى شهر يناير .. تجعل الرغبة فى النوم أحلي من أي شئ آخر .

يترامي إلي الآذان .. صوت دابة تعدو فى الشارع ، لم تلفت الانتباه أول الأمر . إلا أن دبيب أقدامها ذاهبة .. آيبة أخذ يتكاثر بشكل لفت انتباه الرجل الكبير .

– تري .. " فحلة " من .. التى تجري فى الشارع ؟!

قوبلت ملحوظته بشئ من الفتور .. فلاذ هو الآخر بالصمت .

وأخذ يزدرد طعامه فى حركات تلقائية .. مثلهم .

كفت الدابة عن العدو .. لحظات . ثم عاودته من جديد .

وصل إلي الأذان .. أصوات إمرأة فى الشارع تتسائل .
– " فحلة " .. من هذه يا تري ؟!
لم يفكر أي منهمّ فى الإجابة علي هذا السؤال . كأن الأمر لا يعنيـــــهم البتة . حتي فرغوا جميعا من الطعام .. وشربوا الشاي الساخن .. وبدأت الحياة والدفء تدب في الأوصال نهضّ الحاج إبراهيـــــم .. فتوضـــأ .. اعتلي الأريكة .. جلس جلسته التاريخية التى تعود عليها منـــــذ تخطـــي الخمسين من عمره . وبعد أن كبر الأبناء أمسك بمسبحته . وأخذ يتمتم بالتسابيح وأنامله تداعب حبات المسبحة . حتي إذا انتهي بقية الأبنـــــاء من وضوئهم .. قام ورفع عباءته العتيقة . التى ورثها أبا عــــن جــــد .. وفردها علي كتفيه .. وتناول عصاه التي تعود الاعتماد عليها ليـــــلا .. يستكشف بها معالم الطريق .. المظلم . أو يهش بها كلبا ضالا .
تقدم الأبناء خارجا للمسجد .. إجتاز البهو الكبــــير .. فتــــح البــــاب الخارجي الضخم الذي أخذ يئن وهو يتحرك .. أنات تعبر عن ســـنوات عمره المديد .. ثم اجتاز الحديقة الصغيرة التى زرع بها .. بعض شجيرات من الليمون والجوافة .. وعدة نخلات . وخرجوا للطريق .. وقد خــــلا بال الجميع من كل شي عن دبيب الدابة فى الشارع .
وبمجرد خروج الرجال .. قامت النسوة فى البيت .. برفع بقايا الطعــــام .. والاستعداد للصلاة كل فى حجرتها .. حتي إذا انتهين منها أخـــــذت كل واحدة منهن فى أداء الواجبات المنزلية . من تنظيف وتسوية للفراش

.. ووضع الطعام للطيور .. انتظارا لحضور الرجال لفتح حظيرة المواشي .. لوضع الطعام أمامها والتنظيف أسفلها .

عاد الحاج إبراهيم وخلفه أولاده من المسجد .. عصـــاه فى يســـاره .. والمسبحة فى يمنيه .. وشفتاه تتمتمان بالتسابيح .. حتي إذا اقترب مـــن داره .. راودته رغبة ما في الدخول إلي الدار من الباب الخلفي . بـــاب حظيرة المواشي .. فاستجاب لذلك .. ولم يسر خلفه إلا أحد أحفـــاده الصغار الذي يصر .. دائما علي ملازمة جده فى غدوه ورواحه .. وولج البقية من الباب الرئيسي للدار . وما أن تجاوز منتصف الطريق .. حتى سمع الحاج صوت إمرأة تسكن خلفهم تولول .. وتنادي .

– يا حاج إبراهيم .. يا حاج .. بهايمك إنسرقت .

ذهل الرجل .. تسمر مكانه لحظات .. حتى استوعب ما تقول . توقـف عن التسبيح .. وضع المسبحة فى جيبه .. غذ فى خطاه .. ولشـــد مـــا كانت دهشته عظيمة .. عندما وجد جدار الحظيرة مثقوبا ثقبا كبـــيرا يسمح بمرور " فحل جاموس " وأمام الثقب تقف " الفحلة " وقد فـك خطامها .

فى هذه الأثناء ..توافد كل من بالدار من بقية أفراد الأسرة علي صـوت المرأة .. داخل الحظيرة .. ومنهم من خرج من الثقب . وكذلك تجمـع الناس .. الوافد منهم من المسجد .. أو الذي استيقظ علي الصـــراخ وأصوات المجتمعين .

تفقد الشيخ الحظيرة .. فلم يجد " الجاموسة " الأم .. فطلب من أبنائه .. أن يقتفوا أثر .. أقدام الأم إن أمكن .. ويحاولون البحث عنها بأسرع ما يمكن . فخرج الجميع وقد تسلح كل منهم بما طالته يداه .. بعضهم حمل العصي ومنهم من حمل سيوفا وشقارف وفؤوس .

أسند الرجل ظهره إلي حائط الحظيرة .. متعكزا علي عصاه .. يفكر .. ويستوعب الموقف .

خشى اللصوص من فتح الباب حتي لا يحدث صوتا .. وقاموا بثقب الجدار لأنه من الطوب اللبن .. ولن يحدث أي صوت .. وعندما دخلوا .. اصطحبوا الأم أولا .. لأن الأم مطيعة .. فخرجت معهم .. لكن إبنتها ..عندما لم تر أمها .. تمردت عليهم .. عند خروجها من الثقب .. نفرت ..وجرت منهم .. وعند ذلك تذكر الرجل .. أصوات الدبيب التى سمعها أثناء تناول السحور .. فضرب بكف يده علي رأسه .. وأخذ يتمتم .

– لا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم تحرك داخلا من الثقب .. حتي وصل مكان " الفحلة " – وأخذ يتحسس ظهرها بكف يده .. فى حنو وأمتنان . نظر حوله .. فوجد النسوة بعضهم متجمعات بالخارج يتبادلن الحديث .. ونساء بيته جالسات فى الحظيرة وعلي عتبة الباب الداخلي .. وقد أخذن فى البكاء الصامت . إلا الحاجة الكبيرة .. التى وقفت وقد تجهم وجهها وبدت

عليه التجاعيد . وقد ارتكنت بظهرها إلي الحائط تنظر زوجها بعيـــون مشفقة . وعندما تلاقت النظرات . قال لها .

– الحمد لله علي كل حال .. خير أن شاء الله .. سوف يعود الرجـــال بالأم .

ذهلت المرأة من كلمات الرجل الواثقة المطمئنة .

أكمل الرجل حديثه .

– ما دامت " الفحلة " هنا .. سوف تعود الأم .. لأن الحرامية أكيـــد خافوا من جريها خلفهم .. ثم إن الامام لن تسير طيعه – طالما كـــانت ابنتها تجري خلفها .. سوف تزعق عليها . اطمئني سيعود الرجال بالأم.

ولكي يجعلها تثق بكلماته .. دخل الدار .. حتي وصل الأريكـــة الـــتى تتوسط البهو الكبير .

رفع العباءة عن كاهلة .. ركن عصاه فى مكانهـــا المعتـــاد . ثم اعتلـــي الأريكة .. وتربع عليها . أخرج المسبحة من جيبه .. وأخـــذ يداعـــب حباتها بأنامله ..ويتمتم بشفتيه مسبحا .

وما هي إلا دقائق .. إلا والرجال يعودون بصحبة الأم .

الدار الكبيرة

السكون يسود الكون . لا يعكر من صفوة إلا نباح كلب ضال بين الحين والآخر . الليل يكاد يزفر أنفاسه الأخيرة .

الرجل يتقلب فى فراشه .. جافاه النوم .. نبا به مهجعه . رأسه يكاد ينفجر .. يحس به ساخنا من كثرة ما يموج به من وساوس وأفكار .. نفس جذعه .. مما يتنازعها من مخاوف .

لم يكن يتصور .. أن يأتي فى حياته .. اليوم الذي ينهار فيه الصرح .. الذي قضي عمره كله فى بناءه .. وأمام عينيه .. وهو حي يرزق .. وبيد من ؟! أحد أبنائه .. أصغرهم .. وأقربهم إلي قلبه !! .

ربما لأنني دللته أكثر من اللازم .. فلم يتعود إلا أن يفكر سوي فى مصلحته فقط . ربما زوجته التى دفعته إلي ذلك . نعم .. هي .. مؤكد هي .. فمن البداية لم أكن مرتاحا .. لهذه الزيجة . وتراجعت أمام إصراره عليها . هي جميلة .. نعم .. لكنها كسولة .. واخدة بالها من نفسها شويتين . وهذا ما كنت رافضا له فى أي زوجة لأي ابن من أبنائي .. ومن البداية كنت دائما أسعي وراء البنت .. الشغالة .. الولادة بنت الأصل . التى لا تفكر إلا فى زوجها وعيالها .. ودارها

وأرضها . يدها مع يد زوجها .. في كل شئ . أم هذه . فالسهر أمـــام التليفزيون حتي أنصاف الليالي .. والنوم حتي الضـــهيرة .. وعلمـــت زوجها الكســل . لقد عودت أبنائي من الصغر . علي الصحيان مع أذان الفجر .. وبعد الصلاة .. نتناول الإفطار . وكل واحد يـــروح علـــي شغله. كيف كان سيتيسر لي .. أن أصبح من أصحاب الأطيـــان إن لم أفعل ما فعلت ماذا كنت أملك من البداية ؟؟

كل اللي كان حيلتي .. تلتين فدان .. نصيبي من ميراث أبي . وكمـــان أرض إصلاح زراعي . وحجرتين في دار العيلة بعدما حـــبر اخـــوتي الاثنين علي القسمة . وكل واحد يروح حاله بالرغم من أنني لم أكـــن موافقا أبدا علي مبدأ القسمة هذا . ولما فكرت في الزواج .. لم أبحـــث عن الجمال .. كان كل أملي .. البيت يتملي عيال . إيدهم علي أيـــدي في الخير .. والشر .. وقد كان .. ومن حتة الأرض عملت عشرين فدانا .. حطيت القرش علي القرش .. ما عرفتش طعم السيجارة .. ولا عمري سهرت .. إلا لما جبت التلفزيون .. وبعد إلحاح العيال والكبـــار .. ولغاية الساعة عشرة بالكثير .. " وبقي عندي بدل الجاموسة خمســـة في عين العدو" .. وجرار زراعي .. وماكنة ميه .. وبنيت الدار .. دوار كبير .. دورين .. الأرضي عشر حجرات كـــل واحـــد مـــن الأولاد حجرتين .. واحده له هو ومراته والثانية لعياله . والدور الثاني للبنـــات الثلاثة والولدين المتعلمين .. اللي شغالين وعايشين في مـــصر .. عمشـــلك

لما ييجوا .. ما يكونوش تقال علي أحد من اخوتهم .

الدار بقت دوار .. حلمت بيه كثير قبل ما أعمله . وبعد ما بدأت ارتاح .. وبقت رجل فى الدنيا والثانية فى الآخرة .. ينهد ده كله .. وأمام عيني .

لم أصدق ما قاله ابراهيم .. إبني !!

– يابا .. العمر الطويل لك .. أنا عايز نقسم الدار والأرض . مراتي مش مرتاحه مع أمي .. ونسوان إخواتي .. وعايز أريحها وارتاح أنا كمان . هو انت مش يهمك راحتي برضه يابا ؟!!

ساعتها لم يصدق نفسه .. ذهل مما سمع .. هز رأسه .. لعله كان يحلم .. فيفيق من حلمه . ابني إبراهيم .. هو الذي قال ذلك نقسم الأرض والدار .. كمان .. ياوله .. وقدرت تقولها .. وفي وشي .. مراتك مش مرتاحة .. عنها ما ارتاحت .. ازاي .. ناقصها إيه .. أكل ؟ . شرب ؟ .. لبس ؟ . بتاكل وتشرب وتلبس أحسن مما كانت فى دار أبوها . سكت .. لم أجد فى نفسي القدرة للرد عليه .. ذهلت من الصدمة . ما صدقتش اللي سمعته .

أخذ يتقلب فى الفراش .. يزفر .. زفرات حارة .. جعلت زوجته النائمة بجواره .. تستيقظ .. فجلسا فى الفراش .

لم يتعود أن يخفي عنها أفكاره .. وما يدور فى رأسه .. فهي شريكته فى كل شئ . وكان يستمع إليها عندما تبدي رأيا مخالفا لرأيه . وكثيرا ما

اقتنع بما أبدته من أراء وعمل به . طول العشرة جعلهما يفهمان بعضهما البعض جيدا .

– ابنك عايز يهدها .. يخربها ..عايز يقسم الدار والأرض علشان مراته ترتاح .

بحلقت بعينيها مذهولة . عادت وأغمضتها ..وفركتها بيديها .

– بتقول أيه يا حاج .. قول كلام غير ده .

– أهو ده اللي حصل .. بعد صلاة العشاء .. ليلة امبارح .. دخل ورأي وقال لي الكلام ده .

هرشت راسها . حركتها .. شمالا ويمينا .. لازت بالصمت لحظات ثم قطعته قائلة :–

– وهو ده اللي قالقك .. وسارق منك النوم .. نم يا راجل .

– أنام أزاي يا وليه .

– الدار دارك .. والأرض .. أرضك .. والخير كمه .. خيرك .. شما اللي عايشين فيه . من تعبك وشقاك اللي عايز يكون ابنك بصحيح وابن بطني بجد .. أهلا به وسهلا .. واللي هايمشي ورا شورة مراته .. يدور له علي أب وأم ثانية .

ما فكر الرجل بهذا الشكل .. كانت روح الأبوه وحرصه علي أولاده . وعلي أن يترك لأولاده .. مالم يتركه له أبوه .. هو محور حياته .. أما أن يقولها .. أو يفكر فيها بهذا الشكل .. فلم يخطر له أبدا علي بال . حقا

أن الفرع الأعوج يتم قطعه حتى تستوي الشجرة .. وتعلو إلي عنـــــان السماء . لكن هذا ابني ؟! من صلبي ! كيف قالتها المرأة ؟؟ أمه ؟!
استطردت بعد لحظات .
– باقولك ايه يا حاج .. مراته دي .. أنا من يوم ما شفتها .. مدخلتش لي قلب ولا عقل . وهي السبب فى ده كله . خليه يطلقها .. والحمد لله .. أنه لم يرزق بعد منها بأولاد .. وحتي لو كان عنده منها عيال .. اللي يخرب علينا .. نخرب عليه .. وشوف له واحده تحوط عليه .. مش زي دي واخداه يا ولداه للخراب .
آه منكن يا نساء .. وهذه فكرة أخري لم ترد لي علي بـــــال .. لكـــن الطلاق .. طول عمري أكره أي سكه فيها طلاق .. حتي أنني بعد مــــا زرت المقام النبوي وحجيت بيت الله .. بعدما أصبحت صــــاحب أرض وكبرت فى السن والناس بدأت تدخلني فى حل مشاكلها وتوســــطني فى الصلح وحل الخلافات .. كنت أرفض أن أسير فى أي طريق يوصــل إلي الطلاق .. وكانت كلمتي معروفة للجميع .
– الطلاق يخرب البيوت .. وأنا ماليش فى الخراب .
رفع كفيه .. إحتضن بهما وجهه .. لحظات ..ثم ارتكن بهما علي جانبيه.
من بعيد .. أتاه صوت مؤذن مسجد القرية .
– الله أكبر .. الله أكبر .
ردد مع المؤذن ..وكأنما أفاق إلي نفسه .

- هيا يا حاجه .. أيقظي الأولاد على ما أتوضأ .
حتي إذا عاد من وضوئه .. وجد الدار كلها يقظي كالعادة .. ما عدا .. ابنه إبراهيم وزوجته .
هتف بزوجته قائلا :
- أيقظيهما .
خرج من الدار .. يتبعه أبناءه .. وأحفاده فى طابور متواصل . وعندما رجع من الصلاة .. كان الإفطار معدا .. كما جرت العادة علي عدة طبال .. كل منها يتوسط حصير متواضع ..علي الأرض جلس علي رأس كبراها . وحول أبناؤه والثانية تتوسطها زوجته حولها نساء أبناءه .. والثالثة يلتف حولها الصغار جميعا . كان الجميع حضرا .. بما فيهم ابنه ابراهيم .. الذي لم يحضر الصلاة فى المسجد .. وإن كان قد صلي بالبيت .
أخذ يراجع كعادته أبناءه فى العمل المطلوب إنجازه اليوم ليقوم فى النهاية بتكليف كل منهم بالعمل المطلوب منه .. ولم يسمع منهم إلا كلمة .. حاضر يابا . وبعد أن فرغوا جميعا من الإفطار وشرب الشاي هموا جميعا بالقيام إلا أن الرجل أشار لهم أن أبقوا جالسين .
- اللي فات من العمر .. مش قد اللي جاي .. وأنا وأمكم .. يسأل الله حسن الختام .. وأنا مخلف رجاله .. واللي خلف ما ماتش .. وأنا طول عمري حريص علي اللي عملته .. ومش حاجي فى الآخر وأهده بإيدي.

العيلة دي .. عيلة الحاج مصطفي أبو سالم .
مضرب الأمثال . طول عمري .. وعايزها كده بعد موتي . عايز اسمـــها يفضل عليه الحاج مصطفي أبو سالم . الأرض أرض مصطفي أبو سالم .. والدار داره . اللي هايسمع الكلام ويحط كلامي ده فى دماغه كويـــس يبقي ابن مصطفي أبو سالم .. واللي فى دماغه حاجه ثانية .. هو اللـــي هايجني علي نفسه . يالله . اتكلوا علي الله . وشوفوا مصالحكم .
استمع الأبناء صامتين ..غير مدركين لما هو خلف حديـــث أبيـــهم .. ينظرون إلي بعضهم البعض مستفسرين .
خرج الرجال .. يتبعهم النسوة والأولاد ..ما عدا زوجة إبراهيم .
– يا ابراهيم .. خد مراتك معاك _ وعلمها ازاي تكون أيدها علـــي أيدك فى كل حاجه .
قالها بلهجة حاسمة .. قاطعة .. غير قابلة للنقاش .
قامت المرأة من جلستها فى تكاسل وتبرم .. صرخت بها حماتها .
– يالله يا اختي .. متعطليش الرجاله عن شغلهم .. الشمس طلعت .
هم الرجل من جلسته واقفا . صلب عوده .. أخذ نفسا عميقا .. زفـرة مرة واحدة .
ربت علي صدره بيده .. اتجه إلي حجرته .. ينشد بعض الراحة .

هكذا - جرى الأمر

ساد القرية .. هدوء مريب .

تحركات متسارعة .. اجتماعات بين أركان الإدارة وأعيانها .. تتم فى حيطة وحذر بالغين . وفي مكان مختلف فى كل مرة .

يقف علي باب دوار العمدة ثلاثة من الخفر .. بشكل دائم . بالرغم من أن باب الدوار مغلق دائما . وحجرة التليفون مغلقة علي عاملها . لم يعد العمدة يجلس جلسته المعتادة أمام الدوار .. يحيط به أركان الإدارة . يتلقي تحية الرائح والغادي من المارة .

شيخ الخفر .. شيوخ الحارات .. وأعيان القرية .. فى حالة تربص وتوجس .. واجتماعات واتصالات مستمرة .. مع ابن العمدة البكر الذي تجاوز الثلاثون من عمره .

فى موعد محدد .. أو غير محدد .. اجتمع أركان القرية جميعا فى الدوار .. لم يدم الاجتماع طويلا .. حيث خرج الجمع إلي حجرة العمدة الذي رقد يصارع سكرات الموت . أمامه أعلن الجميع ولائهم التام لأبنه .. ولي عهده وأن الجمع كله سيقف خلفه بكل ما يملك من قوة وجاه .. للتغلب علي أي عقبة تحول بينه وبين كرسي أبيه .

وبعد أن خرج الجمع من حجرة العمدة .. دلفوا إلي المضيفة .. حيث اجتمعوا مع العمدة القادم .

ساد الصمت لحظات .. ثم ساد همس وارتباك .

– شد حيلك يا حضرة العمدة .

– ما دائم غير وجه الله .

– البركة فيك .

تنحنح شيخ الخفر .. فساد الصمت ثانية .

– أنا شايف يا جماعة .. أننا لازم نرتب أمورنا جيدا .. وبدون ما نترك صغيرة ولا كبيرة .. الا ونتفق عليها .

لم يبد أحد اعتراضا .. بل ساد صمت الموافقة .

– أول حاجة .. انتم عارفين شرط العمودية .. أن يكون العمدة لديه عشرة أفدنة ملكا .. والعمدة .. بعد توزيع التركة لن يصل حقه منها إلي عشرة أفدنه . وأنا شايف أننا نعمل له عقود بيع بكام فدان .. نكمل له الحيازة المطلوبة .. ونسجلهم فى الشهر العقاري .

دي أول حاجة ..ابتلع ريقه وأكمل .

– والثانية ما نخليش حد يرشح نفسه قباله .. علشان تبقي بالتزكية .. وعليه علينا كلنا نروح البندر عند البيه المأمور ونعلن له أننا عايزين العمدة الجديد بالاسم .. وأن سعادته أصر علي فتح باب الترشيح .. نمنع ولو بالقوة أي حد يسمح لنفسه يترشح قباله .. والزاجل .. اللي

يفكر .. بس مجرد تفكير .. أنه يرشح نفسه .

وآخر حاجة .. وأهم حاجه .. أن الدوار يتفتح .. والعمدة الجديد يقعد مكان والده .. ونفس القعده ..ويمارس اختصاصه حتي تعرف النـــاس وتسلم أنه العمدة الفعلي . وبكده نقطع الطريق علي كل من تسول لـه نفسـه أن يفكر فى أن يكون عمده .

أبدي الجميع موافقة تامة .. فهذا الوقت .. وذلك الظرف .. لا يسمح بخلاف .. وإلا غرق المركب بمن فيه .. علي حد قول أحـــد شـيوخ الحارات . إلا أن بقال القرية أراد أن يضيف شيئا .

– يا جماعة الخير .. نكمل ترتيبنا .. ونشوف ماذا سـنفعل فى حالـة الوفاة. وإجراءات الدفن .. والناس اللي هاتيجي للعزاء .

وتم الاتفاق علي تشكيل لجنة من أحد شيوخ الحارات وشيخ الخفـر .. وأحد الأعيان . لوضع كافة الترتيبات . حتي إذا حضر المأمور للعزاء .. وجد الامور أفضل مما يجب أن تكون .

كل هذا وأهل القرية .. فى حالة توجس .. وترقب .. وسؤال حائر علي كل الشفاه ..هل العمدة .. مريض ؟ .. أم هل مات فعلا ؟

إلي أن فوجئ الناس .. صباح يوم .. بعربات نقل كبيرة ..تقل مكونات سرادق كبير .. بدأ إقامته أمام دوار العمدة .

وبدأ المعزون .. يتوافدون من القري المجاورة .. والمدن القريبة .. وأهـلى القرية مغيبون تماما .. فى حالة ذهول .. وإنبهار بالقـادمين والجنـازة

الفخمة التي لم يروا مثيلا لها من قبل . فنسي الجميع ما فعله بهم العمدة المتوفي .. طوال سنوات عموديته .. حتي ألد أعدائه وأخذوا جميعا يتفرجون بإنبهار .. بل ويشاركون فيها . حتي بكي بعضهم دمعا حارا علي الفقيد بعد ما وجدوا أنفسهم .. يتجاوبون مع الحدث .. ولا شماتة في ميت . وانجرفوا مع الركب سائرين . باكين .. ومولولين .. وأحاط الجميع بابن العمدة .. والعمدة القادم .. في شبه مبايعة تامة . أخرست كل ألسن المعارضين .

إلا أن الحاج ابراهيم . أحد أعيان القرية .. والطامع الوحيد في كرسي العمودية . كان وأتباعه أكثر الناس يقظة وتوجسا .. من مجري الأحداث .

إلا أنه لم يكن بالإمكان الخروج عن مجري التيار . وخاصة في هذا الظرف .

وبعد أن عاد إلي بيته .. تجمع حوله أعوانه .. يتشاورون في الأمر . وما هي إلا دقائق معدودة .. إلا وشيخ الخفر يهبط عليهم .. كأنما نزل من السماء . وجدوه وسطهم واقفا يتأمل كل منهم برهة . ثم تنحنح وقال:

– ألا تعرفون أن الاجتماعات ممنوعة .. وأن البلد في حالة طوارئ . كل واحد يخرج إلي داره .. صامتا .. ويغلق عليه باب داره .. وإلا كان هناك .. تصرف آخر .. قدروا الظرف الذي تمر به البلد وبلاش .. فتن

وقلاقل .

كتم كل منهم ما بداخله . وانصرف صامتا .

ومضت أيام قليلة .. إنطوي كل أهل القرية فيها علي نفسه .

فلا الظرف .. ظرف قلق .. ولا هو الوقت المناسب لفعل أي شئ ومال الجميع الا استسلام قدري لمجري الإحداث . وبعد أيام قليلة .. صدرت تكليفات الإدارة بتولي العمدة الجديد مهام منصبه .. وأقيمت الحفلات .. ونصبت الموائد .. ونسي الجميع موت الأب . ولم يفكر أحد إلا في كيف يظهر الولاء والطاعة .. للعمدة الجديد .

حادثة على الطريق

وصلت السيارة إلي مدخل المدينة .. طريقين مستقيمين متوازيين أحدهما للداخل والآخر للخارج .. يفصل بينهما جزيرة بعرض متران تقريبـد .. زرع بها أشجار صغيرة .. وأحيطت من الجانبين بأسياخ حديدية .

– حمدا لله علي السلامة . قالها السائق .. عندما بلغ بداية المدخــل . لم يجد صدي لكلماته إلا من ثلاث أفراد . فركاب السيارة البيجو السبعة .. الاثنان فى الخلف .. رجلان تجاوزا الاربعينات من عمريهما ..كانــا نائمن .. والثلاثة الجالسون بالوسط .. أحدهما رجـل ريفـي قـارب الخمسين من عمره .. والآخرون من أبناء المدينة . أما الجالسان بجـوار السائق .. فأحدهما ضابط بالقوات المسلحة برتبة صغيرة . ويجلس بجوار النافذة والثاني شاب قارب الثلاثون من عمره . وهما اللذان بادرا بـالرد علي كلمات السائق . وأحد الجالسين بالمقعد الأوسط .

الطريق أمامه مستقيما .. وحرارة الجو وقت الظهيرة فى ذلـك اليـوم الصيفي .. جعلته خاليا تماما أمامه . كما أن إحساسه بأنه قد وصـل إلي نهاية الرحلة ..أغرياه بزيادة السرعة قليلا .

فجأة .. كأنما إنشقت الأرض وأخرجته ..وجد طفلا .. يعبر الطريـق

مسرعا أمامه من اليمين هادفا الجزيرة وسط الطريق . لم يره إلا أمامه مباشرة .. والسيارة توشك علي الاصطدام به . حاول إيقاف السيارة والانحراف ناحية اليمين ليبتعد عنه .. وما يدري إلا وقد اصطدم به ..فزاد من سرعته بحركة تلقائية .

آفاق النائمون بالسيارة .. وانتبه من لم يكن منتبها .

وجه السائق حديثه للجالسين بجواره .. فهما الوحيدان المنتبهان أمامهما للطريق ..وكانا يتبادلان أطراف الحديث معه .

– أنا لم أخطئ .. والله لم أخطئ ..أهذه طريقه عبور الطريق . لاذ .. الاثنان بالصمت لحظات ..كانت كافية للابتعاد كثيرا عن مكان الحادث. سأل أحد الجالسين بالخلف .

– ما الذي حدث .

أجابه الراكب الجالس أمامه .

– صدمت السيارة طفلا كان يعبر الشارع .

– شارع .. أين هو الشارع ؟! ومن الذي أحضر الطفل إلي هنا ؟! وفى هذا الجو .. أليس له أهل ؟!

– الناس شاطره تخلف وترمي عيالها فى الشارع .

رد الرجل الريفي .

– طب علي الأقل كنا نقلناه لأقرب مستشفي .

– آه .. علشان ندخل فى سين وجيم .. وأنت تعرفه وفي الآخر يشيلها

اللي نقله .
- ما هو اللي عاملها .
- لكن الرجل لم يخطئ .. ده طريق سريع .. ومكان مقطوع ليس بـه مساكن . عند ذلك قال السائق .
- والله يا ناس أنا معذور .. لم أره إطلاقا إلا أمامي .. طيب أنتم جالسين بجواري .. رأيتموه قبل أن أصدمه .. قال ذلك موجها الحديث للجالسين بجواره .. وعينه علي الضابط .. فلم يردا .. ألح عليهما طالبا الجواب .
- أمانة ربنا .. قولا الحقيقة . فرد الشاب الذي بجواره .
- أنا لم أره إلا بعد الاصطدام به ورد الضابط .
- وأنا كذلك .
- وأنا لم أكن مسرعا .. فلم أتجاوز الثمانين كيلو . ربنا يسترها معاكم .. أنا عندي عيال .. وأجري علي أيتام .. ده أنا باشتغل الصبح علي القاهرة وفي المساء علي تاكسي داخل المدينة .. علشان أسد .. ومش قادر .
- يا عم أنت ذنبك أيه .. إتكل علي الله .. كمل طريقك .. عمره وقضاه . قال ذلك أحد الجالسين بالخلف .. فلاذ باقي الركاب بالصمت .. لعله صمت الموافقة .. إلا أن السائق تعلقت عيناه بالضابط . فلا يخشي إلا هو .. بعد ما عبر كل راكب عن رأيه ألا هو .. الذي

التزم الصمت .

وصلت السيارة إلي الموقف .. فأتخذ السائق مكانا قصيا .. وأوقف سيارته ..نزل الركاب .. وأخرج كل منهم أجرته ليعطيها للسائق .. وقف الرجل لحظات .. لا يمد يده لأخذها .. ثم قال :

– خلاص يا حضرات .. الأجرة وصلت ..علي أنا المرة دي . رد أحدهم قائلا :

– لا .. والله .. لتاخذ أجرتك .. لم نجاملك فى شئ ..حتي تتنازل لنا عنها .. ووضع له النقود فى جيب سرواله ومضي .. وحذا بقية الركاب حذوه .

عين السائق لم تفارق الضابط .. الذي نزل من السيارة علي مهل .. عدل من هندامه .. أخذ حقيبة يده ..ووضع غطاء الرأس علي رأسه ..فتوجه إليه السائق .

–والنبي يا أفندي .. حضرتك شايف كل حاجه ..أيه ذنبي .. أروح ضحية إهمال أهله .

– أنا معاك .. أنت غير مخطئ .. لكن الخطأ فى ترك الولد بعد الحادثة ..كان المفروض نقلناه لأقرب مستشفي علي الأقل .

– يا فندي لو أنا عملت كده كأني رايح بنفسي أقولهم أنا اللي صدمته سوف يحتجزوني .. وسين وجيم وفي الآخر سوف يوجه الإتهام إلي .

صمت الضابط .. لأنه يعلم أن تلك هي الإجراءات فعلا .

– وكمان زمان أي سيارة جاية خلفي طلبت له الإسعاف .. أو أوصلته لأقرب مستشفي .

– طبعا لا .. لأن كل واحد .. سوف يفكر بنفس طريقتك .

– أقول لك .. نطلب له الإسعاف .. وسيادتك كمان اللـــي تطلبـــها بنفسك .

– أنا ..لا .. وأنا مالي .

– قول لهم شاهدت حادثة بالطريق .

– لا ..لا .. أنا نازل إجازة خمسة أيام ولا أريد أن أضيعـــها فى كـــلام فارغ .

تبسم السائق لأول مرة .. وقال له ..

– إجازة سعيدة يا فندي .

الوهم المخيف

تقع ماكينة الطحين .. غرب القرية . تبعد عن المصرف العمومي أمتــارا قليلة بالقرب من الجسر الذي أقيم علي المصرف .. ليسهل انتقال الناس من القرية إلي الحقول والعكس .. لم يكن يجرؤ أحد من الأهالي .. علــي الاقتراب منها .. فقد كثرت حولها الحكايات ..منذ توقفها عن العمــل من زمن بعيد . فمن قائل أن العفاريت سكنتها بعد أن هجرها صاحبها. وقول آخر .. أن عددا من الأسطوات الذين خطفهم السير الكبير الذي كانت تدور به الماكينة .. وقطع أوصالهم سكنت عفاريتهم المكــــان .. وكانت تخرج ليلا علي العمال الذي ينامون بها ..مما جعلهم يــــتركون العمل ..و كلما حضر غيرهم حدث لهم ما حدث لمن قبلهم . فلم يعــد صاحبها يجد لها عمالا فهجرها وتركها علي حالها دون أن يخلــع منــــها مسمارا واحدا . خوفا من أن يناله أي أذي من ساكنيها . بل قيل أنـــه ترك البلد وهاجر إلي المدينة بعد أن با ع أرضه .. وبني له بيتا هنــاك ولم يعد يزور القرية إلا لماما .

ومن كثرة ما قيل عنها .. أصبح القول يتداول بين الأجيال من الكبــير إلي الصغير .. حتي أن كل أفراد القرية يعرفون كل ما دار عنــــها مــــن

حكايات علي مر الأجيال .. ولا يخلو الأمر من زيادة فى الحكي تحكم الأسطورة .. كل مره .

إلا أن ما بدأ يلفت النظر ويثير الحكي من جديد ..هو ذلك التغير الذي بدأ يظهر علي الماكينة المهجورة .

إذ بدأ يظهر ليلا .. ضوء باهت .. يبدو للرائي من بعيد .. يتسلل من بين أضلاف النافذة المكسورة التى تقع بمواجهة القرية .. فيراه من يركز البصر إليها ليلا . لم يعرف أحد علي وجه التحديد .. كيف بدأ هذا الضوء ؟ ومتي ظهر ؟! إلا أن سعدون .. ذلك الشاب الذي اشتهر فى القرية بقلبه الميت .. ذات ليله شتوية وبعد العشاء مباشرة .. بينما يتجول فى حواري القرية قادته قدماه .. لطرفها الغربي .. ولا يدري ما الذي جعله ينظر ناحية المبني المهجور .. إلا أن ما اذهله .. أنه لاحظ هذا الضوء .. فصرخ بأعلي صوته .

– الحقوا .. يا أهل البلد .. الماكينة المسكونة نورت .

لم يأخذ أحد قوله علي مأخذ الجد فى البداية ..لعله يتندر كما هي عادته بشئ خارق للعاده .. إلا أنه تصادف ذلك مع مرور أكثر من شخص عائدين من المسجد الموجود فى داير الناحية . فوقفوا معه ينظرون إلي الناحية التى يشير إليها .. ولاحظوا فعلا صحة ما ادعاه .. فعلت أصواتهم وهم يتحدثون .. حتي تكاثر الناس حولهم .

– أمعقول هذا ؟!

– كيف تكون مسكونه وفيها نور ؟!

– لعلها .. العفاريت .. ألم تستيقظ البلد كلها السنة قبل الماضيه علـــي صوت الماكينه وهي تدور .

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. روح يا عم أنت وهو كل واحــــد لحاله . قال ذلك أكبرهم سنا فانصرفوا من حول سعدون .. وعندمـــــا وجد نفسه وحيدا . ضرب كفا بكف .. ثم هرش رأسه .. بإصابع يــده اليسري من اسفل الطاقيه الصوف البنية اللون التى يعتد بها ويعتبرها من علامات الوجاهه .. ثم مصمص بشفتيه . وعقله غير مصدق لما يـــــراه ويسمعه . إلا أنه وصل بينه وبين نفسه لقرارٌ لا رجعة فيه . فلم يدخـــل نفسه الخوف ولو مره واحدة من ذلك المكان إلي الدرجة التى يخافه غيره من الأهالي .. فمرات كثيرة اصطحب ما كانت ترضي له من النساء إلي هناك لكن ذلك كان يتم أيام الصيف وفى وقت القيلوله.. أما فى الليـــل فلم يجرب ذلك قبلا . ليس خوفا ..ولكنه لم يفكر فى ذلك ولم يحدث ما يجعله يجرب . كل ما كان يشغله هو .. هل يفعل ذلـــك وحـــده .. أم يصطحب أحد من الشباب معه . فلو فعلها وحده وذهـــــب ليـــلا .. واقتحم هذا المكان من يصدق .. لو حكي لهم عنه .. لابد من وجـــود شاهد ..بل شهود .

فكيف له ذلك ؟! أخذ يفكر طيلة الليل .. والنهار التالي .. حتي هــداه فكره إلي حوالي عشرة أشخاص توسم فيهم الفتوه والجرأة وذهب إليهم

دون انتظار وأخبرهم أنه أعد لهم سهرة وسوف يحلفون بها العمر كلـه . كل ما يطلبه منهم إلا يسألوه أين مكانها .. ولا ما هي الســـهره .. إلا بعد أن يذهبوا معه ويعودون يحكون هم بأنفسهم عنها .. فلـــم يقتنـــع البعض .. وذهب معه ستة أفراد .. تقدمهم فى الليلة التالية .. وقد أعد بطارية حجارة تنير له الطريق .. وساروا خلفه يتندرون عما يمكـــن أن يعده لهم سعدون .. وكان الكل مجمعا علي أنه أحد مقالبه .. المشـــهور بها .. وهو يتدخل بالنكات أحيانا .. أو بتذكيرهم بما يضحك .. أو يثير روح المغامره فى نفوسهم حتي يلههم عن ملاحظة إلي أين يقودهـــم . إلي أن اقترب بهم من بدايه الدرب المنحرف إلي المكـــان المقصـــود إلا أن أحدهم أدرك أنهم يتجهون اليها فوقف صارخا .

– ياليلة أبوك سوده يا سعدون . أنت واخدنا لفين يا واد .

– واخدكم لأحلي سهره وأجمل نساء البلد .. اللي كل واحد منكـــم يحلم بس يبص فى وشها .

– لا يا عم .. أنا راجع .. دا باين عليه واخدنا للجان والعفاريت .

وقف الجمع عن التقدم . ولأن المسافة الباقية كانت لا تتجاوز العشرين أو الثلاثين خطوة .. صرخ بهم سعدون .

– أمال عاملين رجاله ازاي .. ثم أكمل بصوت عال .. أحنا كلنا مـــع بعض واللي هايصيب واحد منا ها يصيب الكل .. كل اللي أنا عـــاوزه أنكم تشوفوني وأنا داخل جوه .. أنا اللي ها أدخل .. وانتم زي ما أنتم

بره .. ولما أطلع بالسلامه اللي عايز يدخل بعدي يدخل .. واللي مش عاوز هو حر .

– يعني عايز تفهمني أن فيه جوه واحده مستنياك .

– لا .. ياحدق . بصراحه كده عايز أعرف إيه حكاية النور اللي انتم شايفينه ده .. عفاريتي ولا أنساوي . سادهم وجوم لحظات . فمنهم من داخله الخوف ورغب فى العودة .. ومنهم من رفض أن يكون سعدون أكثر منه شجاعة ورغب فى أكمال الحكاية .. ومنهم من قال لنفسه أكون بعيد واري .. أن وجدت ضررا أطلقت ساقي للريح .. وإن صار الأمر علي ما يرام اكملت معه ويقال عني مثل ما سيقال عنه .

لم يترك سعدون لهم فرصة التراجع .. تقدمهم لا يلوي علي شئ .. وهو يتندر بهم .

– يا شباب .. يا شباب .. ستة ثيران لو تعلقوا فى سواقي البلد لسرووا كل الأراضي . قال أيه خايفين من عفريت ..واقترب من المبنى ..و اتجه مباشرة إلي النافذة المكسورة .. التى يخرج منها الضوء .. بدون أن يحدث أي صوت .. وأخذ يتلصص عليها .. فلما لم يسمع أي صوت أطفأ البطارية التى معه .. ووضعها فى جيبه .. ثم رجع إلي الخلف قليلا وبكل ما يملك من قوة اندفع وبيديه .. دفع النافذة .. فانفتحت علي مصراعيها ..ووثب إلي الداخل .

وهم وقوف .. منهم من يتأهب للعدو عائدا ومنهم من يسترقب ما

سيحدث وكله تحفز لدرجة وقف معها شعر رأسه .. مرت لحظات كأنها الدهر بطوله.. وفي اللحظة التى تأهب فيها الجميع للجري عائدين غانمين السلامة وقد أمسك كل منهم بيد من بجانبه وضغط عليها مرعوبا تعالت ضحكات سعدون من الداخل .

خف الرعب .. بل تبدد .. وحل محله رغبة ملحة فى الاستطلاع .. فكوا أيديهم المتماسكة .. وتركزت كل أبصارهم ناحية النافذة المفتوحة وكلهم ترقب . حتى خرج عليهم سعدون ضاحكا مسرورا بانتصاره .

– تعالوا شوفوا يا شباب العفاريت اللي مخوفه البلد .

تقدموا فى تردد وتحفز ينظرون عبر النافذة إلي الداخل وقد تجمعت رؤوسهم واشرأبت اعناقهم ولشد ما كانت دهشتهم عندما وجدوا شعبان الأهبل .. نائما علي المصطبة بجوار القادوس ينظر إليهم مرعوبا .. وقد كور نفسه .

الجبروت .. امرأة

فتحت باب الحجرة التى لاذ بها منها . وقفت ممسكة بالباب والشـــرر يتطاير من عينيها ..والصراخ يخرج من بين شفتيها .

– أنا كرهت العيشة معك . كرهتك يا أخي .. طلقني .. أن لم تطلقني ها اخلعك . ثم اغلقت الباب خلفها بعنف .

تسمر فى جلسته مذهولا . غير مصدق لما سمعه .أهذه هـي ؟! حبيبته ..التى تزوجها بعدما تزاملا فى الجامعة وبالرغم مـن كـل المشاكل والمصاعب التىقابلتهم من الأهل وغير الأهل ؟ ! أهي بعينيها ؟! .. التى بدأت معه الطريق .. وانجبا ولدان وبنتا .. براعـم صغـيرة ..تربيـا وترعرعا فى ظل علاقة حب .. كانت مضرب الأمثال . أمن هذا الفـم الذي سمع منه أحلي كلمات الحب .. خرجت هذه الكلمات التى سمعها الآن ؟؟!! .

كان يتمني من كل قلبه أن تنشق الأرض وتبتلعه قبل أن يسمع منـها ذلك . تحرك في مكانه .. ليثبت لنفسه أنه لم يشل .. أنه غير حـلم .. لا أنه يتحرك .. يقظا .. سمع بالفعل ما سمع .. وشاهدها وهي تقذفه بحمم الكراهية .. وشرر النمرة التى تنتظر من فريستها أي شـارده أو وارده

لتنقض عليها .

إلي هذا الحد وصل بي الأمر .. أن أسمعها منها . أنها تكرهني . ومنذ متي كان لي أن أقبل أن أحيا مع امرأة لا ترغبني ..لا تريد الحياة معي حتي لو كانت رفيقة درب استمر عشرين عاما أو يزيد . فلتذهب إلي الجحيـــم هي وأمثالها .

– القي عليها يمين الطلاق . وتخلص من هذه المرأة التى لفظتك . لكـــن الأولاد ..وخاصة أن اثنين منهم فى الثانوية العامه .. يريدان جوا مــــن الاستقرار والهدوء العائلي .. حتي يمكنهما المذاكرة بشكل جيد وتحقيـــق أعلي مجموع . ثم إلي أين اذهب ؟! اليست الشقة باسمها .. والأمــــوال التى بالبنك .. شقي سنين الغربه العشره أيضا باسمـــــها .. ولا تحصـــل شهريا من راتبك إلا علي مصروفك كأي ابن من أبنائك ..ومنها بعد أن تسلمها الراتب كاملا فأين تذهب ؟! ومن أين تعيش ؟!

عند ذلك .. أحس بجدران الحجرة تتحرك ناحيته .. تحاصره .. تضيـــق الحجرة عليه .. يضيق به المكان لدرجة أحس معها بالاختناق نهض مــــن جلسته .. خلع جلبابه المنزلي .. ارتدي ملابس الخروج بسرعه .. لم يدر كيف ارتداها .. ودون أن يمشط شعره أو حتي يدري شيئا عن هيئته .. منتعلا ما صادفه أمامه . هرول خارجا إلي الشارع . حتي إذا وجد نفسه علي باب العمارة .. والطريق أمامه رحبا .. عامرا بالحركه . وقـــــف يلتقط أنفاسه الضائعه .

ويملأ صدره بالهواء . رفع رأسه التى تعود أن يحنيها أمامها من احساسه والانكسار . تأمل لحظات بعض المارة فوجدهم ينظرون إليه باستغراب . لم يأبه بنظراتهم .. وعندما أحس بأنه قادر علي الحركه .. وضع أقدامه علي أول الطريق .

لا يدري علي وجه التحديد إلي أين يريد أن يذهب . أو أي اتجاه يسير إليه وفيه . يحس برغبة فى المسير بعيدا .. ولاشئ غير ذلك .

لم يدرك علي وجه التحديد كيف كان له أن يفعل بنفسه تلك الفعله كيف استدرجته إلي الدرجة التى أصبح فيها كالطفل الوديع .. يفعل ما يؤمر به فقط .. كيف ترك نفسه لها تفعل به ذلك ؟ وكيف سمح لنفسه أن يكون كل شئ بيدها .

فى أجازة أول عام .. سدد ما كان عليه من ديون .. وما تبقي انفقه فى بعض الهدايا والذهاب إلي المصيف لتعويض الأولاد عن البعاد والحرمان منه طوال العام . افهمته بل اقنعته أن يلغي التوكيل الذي أعطاه لأخيه حتي يوفر عليها الذهاب إلي البنك كل شهر .. فالزمن تغير .. ولم يعد أحد أمينا علي مال أحد . فلما أعترض عليها وطلب منها عدم الحديث عن أخيه بهذا الأسلوب ..كان ردها أنا أمرأة عاملة ولن يضيرني الذهاب إلي البنك مره كل شهر .. ولا داعي لأن يعرف أخوك أسرارنا ثم أنني لا أقبل أن أتلقي مصروفي ومصروف أولادي من أحد غيرك .. وأخذت تعزف علي هذه النغمة حتي وجد نفسه يحقق لها ما أرادت

..وجعلها هي الوكيلة عنه رسميا .

وعندما سافر .. وبعد عدة أشهر اخطرته أنها وجدت شقة تمليك ممتازة وتريد أن تأخذها بديلا عن شقتنا أو حتي بالاضافة إليها وتبقي القديمة لأحد من الأولاد .. بعد عمر طويل .. كما أن الشقة القديمة دور أرضي . وعايزين نعيش فى الشمس والأولاد فرحين بها جدا .. ولقد تصرفت ودفعت مقدما لها وترجوني الالتزام بباقي الأقساط .. أي المطلوب تحويل كل راتبي أول كل شهر بعد خصم مصروفي الشخصي حتي يمكنها سداد الأقساط . وبعد أن انتهت الأقساط .. دخلنا فى تشطيب الشقة .. وفي الأجازة ذهبت معها لمشاهدة الشقة .. كانت جميلة فعلا واعجبتني .. واسكتني فرحتها وسعادة الأولاد بها عن سؤال أو استنكار من قيمتها العاليه .. أو أنها ستأخذ كل شقانا ..ودعوت الله أن يكملها معنا بالستر ويقدرني إلي أن ننتهي من تشطيبها . وعندما سألت زوجتي عرضا .

– العقد باسم من ؟

– باسمي يا حبيبي . أليس لدينا شقة إيجار باسمك ؟ لا يجوز أن يكون لك شقتان .

– من قال لك ذلك ؟ طالما أحداهما تمليك والأخري ايجار فلا مشاكل علي الإطلاق .

– قالوا لى ذلك . وعموما فى أي وقت تريد تغير العقد .. أنا ليس لدي

مانع .. سكت ..لم أرد أن أجعلها مشكلة .. وإن كان قد دار تساؤل فى ذهني .. لماذا لم تقل لي إذا أردت تغيير العقد .. فتعالي معي نغيره اليوم أو غدا ..

قلت فى نفسي .. أحضر ضيفا عليهم شهرا فى العام أو أزيد قليلا فلا داعي أن يكون شهر مشاكل وليكن شهر متعة ولعب وفرح وسرور .. أعوضهم فيه عن فترة غيابي .

وعندما بدأت أمل واتعب من العزبةو العيشة وحدي بالخارج وخاصة أنني بدأت أشعر أن الأولاد فى مرحلة سنية فى حاجة إلي وجود الأب بجانبهم فيها .. وأخبرتها برغبتي تلك طلبت مني البقاء فترة أخري حتي يمكننا ادخار مبلغ طيب فى البنك فالفرصة لن تتكرر والعمر يمضي .. وأصبر واستمر . إلي أن وصلت إلي مرحلة لم أعد فيها قادرا علي البقاء بالخارج وانهيت عقدي بالرغم من اعتراضها .. وعدت فوجدتها غير سعيدة بعودتي .. وقبلتها علي مضض .. وبعد أن انتهي شهر الضيافة .. وعدت إلي عملي ..وجدت الحياة تسير حولي وأنا علي الهامش .. كأنني غير موجود بالمره ..كل القرارات تأخذها وتتصرف بمفردها بتلقائية .. وطلبت مني عند أول كل شهر اعطائها مرتبي .. لتعطيني مصروفي .. فالأولاد مصاريفها كثرت والعيشة أصبحت نار ولا نريد أن نمس أي قرش فى البنك فهي مركونة للزمن .

فكرت يوما أن أعرف مالي فى البنك .. فذهبت اسأل عن رصيدي

فوجدته صفرا .. عدت للبيت مذهولا . لتواجهني باستنكار .
– أنا اشتريت بها شهادات بعائد شهري باسمي .. ثم لماذا ذهبت للبنك .. قبل أن تسألني .

اسقط في يدي .. نظرت إليها مبهوتا . غير متصور لما حدث . لم تعودني اهتمام .. وانشغلت فيما كانت تفعله .. كأنني لا أتحدث إليها أو أنظر إليها وفي انتظار تفسيرها لما فعلت . أدركت بعد ذلك .. لماذا كانت دائمة الشكوي من أهلي بسبب وبدون سبب حتي تقطعت تماما أواصر المودة بينهم وبينها .. وانفردت بي وحدي .

غلي الدم في عروقه وهو يسير متخذا لنفسه مسارا نحو طريق مزدحم بالسيارات . ربما ليذوب ما بداخله مع الضجيج حوله . كل ما كان يؤثر في نفسه ويكاد يقتله كمدا . هو كيف ترك نفسه يصل معها إلي الدرك الأسفل ؟ ! لدرجة أصبح معها أي تدخل منه في أمر من أمور الحياة الخاصة بها أو الأولاد .. أمرا منكرا يستحق العقاب والعتاب والزعيق . اخذت الثورة داخله تشتد . من أنا علي وجه التحديد ؟! شرابه خرج .. أم خيال مآته ؟! أم ظل رجل ؟! كما يقولون في الأمثال .. جرب أحيانا أن يذهب إلي والدته يوما أو اثنين . أحس بنفسه ثقيلا غير مرغوب فيه . فعندما كان معك لم نرا منك شيئا وعندما استولت علي كل ما معك تطل علينا بطلعتك البهية . فاقتصر علي الذهاب للزيارة فقط وأخذ يكتم ما بداخله .. إلي أن سقط صريع مرض ضغط

الدم وأمراض تصلب الشرايين الناحيه .
أحس بألم فى صدره .. تحسس موضع الألم بيده .. يــارب رحمتــك ..
أفضل لي .. ارحمني منها . ارحمني من قدري .. من حجي الذي كان .
تزايد احساسه بالألم .. بدأت خطواته تضيق .. يتحامل في سيره توقف.
السيارات تمرق حوله من كل جانب .. حاول عبور الطريق ليجلــس في
مكان ظليل .. حتي يلتقط أنفاسه .. دون أن ينظر يمناه أو يســـراه ..
أخذ يحاول العبور وما يدري إلا وهو يطير فى الهواء .. ثم يسقط علــي
الأرض ..و بعدها أسود كل شئ فى دنياه الذي غاب عنها .

الكاتب فى سطور

الاسم : محمد خيرت السيد أحمد حماد .

الشهرة : محمد خيرت حماد .

تاريخ الميلاد : ١٩٤٩/٢/٢ .

محل الميلاد : تلباته مركز المنصورة – دقهلية .

المؤهل الدراسي : بكالوريوس تجارة من جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٣

دبلوم الدراسات العليا فى محاسبة التكاليف .

العمل : مدير إدارة العلاقات التجارية بقطاع شرق الدلتا بالشركة المصرية للاتصالات .

الأعمال السابقة :

– الضحية : مجموعة قصص قصيرة سلسلة أدب الجماهير إشراف الأستاذ فؤاد حجازي .

– إلي هذا الحد : مجموعة قصص قصيرة إقليم شرق الدلتا الثقافي

سلسلة إبداعات الدقهلية

صدر من هذه السلسلة

◆ الشعر فى المنصورة	مجموعة من الشعراء	١٩٩٣
◆ القصة فى المنصورة	مجموعة من الكتاب	١٩٩٣
◆ رحيق القصة فى الدقهلية	مجموعة من الكتاب	١٩٩٨
◆ رحيق الفصحي فى الدقهلية	مجموعة من الشعراء	١٩٩٨
◆ رحيق العامية فى الدقهلية	مجموعة من الشعراء	١٩٩٨
◆ اوراق أدبية	فؤاد حجازي	١٩٩٨
◆ بطاقة عائلية (مسرحية)	عبد الفتاح الجمل	١٩٩٨
◆ مواويل لميت سلسيل (شعر)	سمير عبد الباقي	١٩٩٩
◆ وجيه عبد الهادي	(كتاب تذكاري)	١٩٩٩
◆ احسن القصص (قصص)	إبراهيم حمزة وآخرين	١٩٩٩
◆ نافذة علي بحر طناح (رواية)	فؤاد حجازي	١٩٩٩
◆ إطلالة نقدية (دراسات)	د. عبد المنعم تليمة وآخرين	١٩٩٩
◆ أحسن الأشعار (شعر)	مجموعة من الشعراء	١٩٩٩
◆ المخاض (رواية)	عادل حجازي	١٩٩٩
◆ قيثارة السماء	محمد محمود عبد العال	١٩٩٩
◆ أوتار الدقهلية (دراسات)	أمين مرسي	١٩٩٩
◆ حروف من قش (شعر)	محمد ندا	١٩٩٩
◆ أحزان القمر (شعر)	محروس السلاموني	١٩٩٩
◆ المتاهة (شعر)	أشرف الفراني	١٩٩٩
◆ معزوفات قصصية (قصص)	مجموعة من الكتاب	١٩٩٩
◆ عيون الليل (شعر)	صفوت العسال	١٩٩٩
◆ ت (قصص)	طارق العوضي	٢٠٠٠
◆ كل هذي النجوم (شعر)	وليد فؤاد	٢٠٠٠
◆ نوبة جنون (شعر)	ناجي عبد المنعم	٢٠٠٠
◆ وعطرك يبقي (شعر)	محمد النبوي	٢٠٠٠
◆ فى محراب الآه (شعر)	المتولي زيادة	٢٠٠٠
◆ رؤي جديدة (دراسات)	مجموعة من النقاد	٢٠٠٠
◆ إبداعات القصة فى الدقهلية	مجموعة من الكتاب	٢٠٠٠
◆ الرقص علي طبول مصرية	فؤاد حجازي	٢٠٠٠
◆ شعر إبراهيم رضوان	إبراهيم رضوان	٢٠٠١
◆ رحيق الكلمة (دراسات)	فرج مجاهد	٢٠٠١
◆ يوم مناسب للقتل (قصص)	أشرف حسن	٢٠٠٢
◆ أحلام علي الطريق (قصص)	محمد خيرت حماد	٢٠٠٢

صدر حديثا :

انحسار اللون الأخضر	قصص	الحسيني خلف
حبك صعب	شعر	عبد الحكم مندور
عصر الأقمار	شعر	عبد الحكيم مندور
البلبل ولسمكة الفضية	قصص للطلائع	فؤاد حجازى
رايحة البيوت	رواية	أشرف حسن عبد الرحمن
صالون برلين	رواية	السعيد أحمد نجم
رسالتى إليك	شعر	عباس الشرقاوي
تكات الخريف	قصص قصيرة	صابرين الصباغ
إيطاليا أو الغرق	رواية	السعيد أحمد نجم
ما قالته نظرتها الأولي	شعر فصحي	صابر معوض
نهاية رحلة الأحلام	قصص	محمد خيرت حماد
أحلام على الطريق (ط٢)	قصص	محمد خيرت حماد

تحت الطبع :

إلى هذا الحد ؟ (ط٢)	قصص	محمد خيرت حماد

- السلسلة : أدب الجماهير
- الكتاب : أحلام على الطريق
- القاص : محمد خيرت حماد
- الطباعة : دار الإسلام للطباعة والنشر
- ت : ٠٥٠ ٢٢٦٦٢٢٠

٠١٢٢٦١٤٣٦٣

- رقم الإيداع : ٢٠٠٥/٢٠٨١٢
- ترقيم دولى :977-374-130-3
- لوحة الغلاف : أنجلو بولو